مسابقــة الوحــيين السابعـــة
لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

المحور الثالث

سورة ص

١٤٤٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مسابقــة الوحــيين السابعـــة
لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

سورة ص

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وعلى صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ البَعثَ حَقٌّ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشرِكينَ.

المادة العلمية لمسابقة الوحيين السابعة
نادي النورين
١٤٤٥هـ

الفهرس

تفسير السورة

	الصفحة		الصفحة
المقدمة	١	المقطع السادس (الآيات: ٢٧-٢٩)	٢٩
ما مسابقة الوحيين؟	٢	المقطع السابع (الآيات: ٣٠-٤٠)	٣٤
محتوى الكتيب وأهم المراجع	٣	المقطع الثامن (الآيات: ٤١-٤٤)	٤١
التعريف بالسورة	٤	المقطع التاسع (الآيات: ٤٥-٤٨)	٤٧
المقطع الأول (الآيات: ١-٣)	٥	المقطع العاشر (الآيات: ٤٩-٥٤)	٥٠
المقطع الثاني (الآيات: ٤-١١)	٨	المقطع الحادي عشر (الآيات: ٥٥-٦٤)	٥٤
المقطع الثالث (الآيات: ١٢-١٦)	١٣	المقطع الثاني عشر (الآيات: ٦٥-٧٠)	٥٩
المقطع الرابع (الآيات: ١٧-٢٠)	١٦	المقطع الثالث عشر (الآيات: ٧١-٨٥)	٦٢
المقطع الخامس (الآيات: ٢١-٢٦)	٢٠	المقطع الرابع عشر (الآيات: ٨٦-٨٨)	٦٨

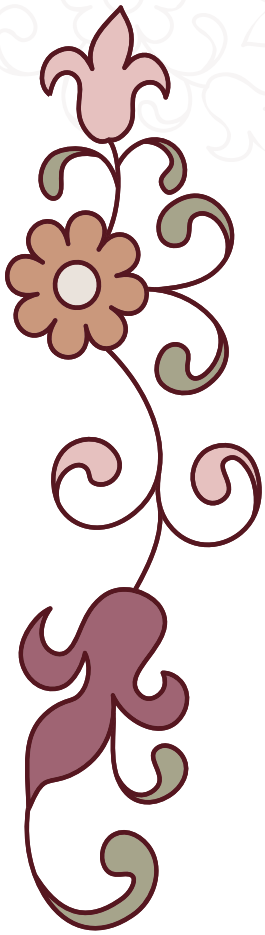

قصص الأنبياء

	الصفحة
قصة نوح عليه السلام	٧٢
قصة هود عليه السلام	٨٥
قصة صالح عليه السلام	٩٣
قصة لوط عليه السلام	١٠٦
قصة داود عليه السلام	١١٦
قصة سليمان عليه السلام	١٢٦
قصة أيوب عليه السلام	١٤٠

المقدمة

الحمد لله واهب النعم، دافع النقم، منجي العباد من الظُلم، والصلاة والسلام على هادي الأمم، خير الورى محمدٍ ﷺ وعلى آله وصحبه، وبعد:

خلقنا الله سبحانه لعبادته، قال جل وعزّ: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، ومن كمال حكمته ورحمته أن شرع لنا سبل العبادة التي يرتضيها، وأظهرها لنا كاملةً في مصدرَي التشريع الإسلامي: (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ).

أكمل لنا فيهما ديننا وأتمّ علينا بهما نعمته، وجعل فيهما هداية الضال ورشاد الحائر وجواب السائل وأمان الخائف وحفظ الأرواح والأبدان، من تمسك بهما فاز وظفر، وغنِم وسَلِم، ومن أعرض عنهما فاتته حظوظ الدنيا والآخرة.

هما سبيل الهداية من الفتن والثبات على الصراط المستقيم، وأعظم طريق يدل على الله بأسمائه وصفاته وعظيم فعاله.

لذا كان لزامًا على كل عاقلٍ أن يلازمهما ملازمة الغريم لغريمه.

ومن هذا المنطلق أُطلقت مسابقة (الوحيين)، لتكون عونًا لكِ على تدبر الكتاب والسنة، وحفظهما والعمل بما فيهما.

ومن هُنا، تشرف جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل، متمثلةً بنادي النورين، بإقامة مسابقة الوحيين لعامها السابع بمشيئة الله.

ولذلك؛ أُعِدّ هذا الكُتيّب الخاص بسورة (ص) إحدى محاور المسابقة، والذي يخولك الارتواء من معين السورة، وفَهمًا لتفسيرها وقصص الأنبياء فيها، واستخراج المعاني من أحاديثها... وغير ذلك.

ما مسابقة الوحيين؟

مسابقةُ الوَحيَيْن هيَ مسابقةٌ سنويَّة، يُقيمها نادي النورَيْن، التابع لجامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل؛ تُتيح فرصة التنافُس في حفظ القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، بين طالبات الجامعة.

تهدف المسابقة إلى تشجيع المُشارِكات على حفظ القرآن الكريم وفَهمه وتدبُّره، وفهم قصص الأنبياء فيها، والاستشهاد بالسُّنَّة النبويَّة واستخراج المعاني منها؛ وذلك من خلال ثلاث سورٍ مختارة، مع مادة تدبُّريَّة مُعَدَّة لكل سُورة، تكونُ مرجعًا للمتسابقات وعليها يقوم التنافس.

وبتوفيق الله ومنِّه، تتجدد المسابقة في دورتها السابعة لهذا العام ١٤٤٥هـ، برعاية كريمة من معالي مدير الجامعة: د.عبدالله بن محمد الربيش حفظه الله.

سُور مسابقة الوحيين السابعة ومحاورها:

١- **المحور الأول: (سورة الأنبياء):** وفيها بَيانُ مَعالِمِ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِي الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه، وإثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه.

٢- **المحور الثاني: (سورة إبراهيم):** وفيها التذكيرُ بنِعَمِ الله على الناسِ، وتحريضُهم على شُكرِها، وتحذيرُهم مِن جُحودِها وكفرِها.

٣- **المحور الثالث: (سورة ص):** وفيها إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرته، وعلى صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ البَعثَ حَقٌّ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشرِكينَ.

وللمزيد عن المسابقة:

يُرجى مُتابعة مُغرِّد نادي النوريَن Nourainclub

محتوى الكتيب وأهم المراجع

١- **التعريف بالسورة**، ويشمل: (اسم السورة، ونوعها، وفضلها، ومحورها، وموضوعاتها).

٢- **آيات المقطع**.

٣- **بيان غريب الآيات والتفسير**، واعتُمِد فيهما على كتاب: التفسير المحرر.

٤- **الفوائد التربويَّة**: وتشمل كل ما يتعلَّق بالسلوك والأخلاق، وعرض النَّفس على الآيات ومُحاسبتها، واعتُمِد فيها على كتاب: التفسير المحرر.

٥- **قصص الأنبياء**: اشتملت السور الثلاث على قصص الأنبياء عليهم السلام، واعتُمِد فيه على كتاب: فبهداهم اقتده لـ د. عثمان الخميس، وكتاب: القصص القرآني لـ د. صلاح الخالدي.

٦- **خاتمة السورة**.

أخيرًا...

شرف التنافس بشرف ما نتنافس لأجله، فهنيئًا لكِ تنافسكِ في هديِ الآي والسُّنَّة.

استحضري أخلَصَ النوايا فهي محل نظر الله سبحانه، واستعيني به لبلوغ أعلى الدرجات في الدَّارين.

ألبسكِ الرحمن بالوحيَيْن الحُلل، و أسكنكِ بهما الظُّلل، وأطاب بهما عيشكِ، وأقرَّ بهما قلبكِ.

التعريف بالسورة

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (ص).

بيان المكي والمدني

سورةُ (ص) مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِن المفَسِّرينَ.

مقاصد السورة

من أهم مقاصد هذه السورة

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وعلى صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ البَعثَ حَقٌّ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشرِكينَ.

موضوعات السورة

من أهم موضوعات هذه السورة

١- بيانُ مَوقِفِ المُشرِكينَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنكارِهم لنُبُوَّتِه وما جاء به مِن التَّوحيدِ.

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن قَومِه، بذِكرِ عَدَدٍ مِن الأُمَمِ الَّتي كَذَّبَت رُسُلَها، مع أمْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ.

٣- حِكايةُ قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ، وابتِلاءِ اللهِ له، وصَبرِه على ذلك.

٥- ثناءُ اللهِ على أنبيائِه: إبراهيمَ، وإسحاقَ، ويَعقوبَ، وإسماعيلَ، والْيَسَعَ، وذي الكِفْلِ.

٦- ذِكرُ بَعضِ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمُتَّقينَ مِن نَعيمٍ، وما أعَدَّه للطَّاغينَ مِن عَذابٍ ونَكالٍ.

٧- ذِكرُ جانِبٍ مِن قِصَّةِ آدَمَ وإبليسَ.

المقطع الأول

الآيات: ١-٣

﴿ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

معاني الكلمات

عِزَّةٍ	العزة: المُغالَبةُ والمُمانَعةُ.
وَشِقَاقٍ	عَداوة ومُبايَنة ومُخالَفة.
قَرْنٍ	القرنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المُقترنونَ في زمنٍ واحد.
وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ	ليس الحِينُ حينَ فِرارٍ ولا مَهرَبٍ.

تفسير الآيات

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)﴾.

﴿ص﴾.

هذا الحرفُ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، يأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها.

﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي الشَّرَفِ، العَظيمِ القَدْرِ، المُذَكِّرِ للعبادِ بما هم عنه غافِلونَ.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)﴾.

أي: إنَّما لم يَنتَفِعِ الكافِرونَ بالقُرآنِ؛ لأنَّهم في استِكبارٍ عنه، وأَنَفةٍ وامتِناعٍ مِن قَبولِه والإيمانِ به، ومُشاقَّةٍ ومُعانَدةٍ وخِلافٍ ومُخاصَمةٍ في رَدِّه وإبطالِه، أو في القَدحِ بمَنْ جاء به.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾.

﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

أي: فنادَى كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رَبَّهم، واستغاثوا بالتَّوبةِ إليه حينَ نَزَل بهم العَذابُ، وليس ذلك الوَقتُ وَقتَ خلاصٍ وفِرارٍ مِن الهلاكِ بالتَّوبةِ، والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَه، والإنابةِ إليه؛ فلا يَنفَعُهم ذلك حينَئذٍ!

الفوائد التربوية

قَولُ الله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فيه أنَّ التَّوبةَ لا تَنفَعُ إلَّا عندَ التَّمَكُّنِ والاختيارِ، لا عندَ الغَلَبةِ والاضْطِرارِ.

المقطع الثاني

الآيات: ٤-١١

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

معاني الكلمات

عُجَابٌ	هو الَّذي جاوَز حدَّ العَجَبِ.
الْمَلَأُ	أشرافُ النَّاسِ ووُجوهُهم ورُؤَساؤُهم.
الْمِلَّةِ	الدِّينِ والطَّريقةِ.
اخْتِلَاقٌ	كَذِبٌ وتخَرُّصٌ.
فَلْيَرْتَقُوا	فلْيَصعَدوا.
الْأَسْبَابِ	طُرُقِ السَّماءِ وأبوابِها.
الْأَحْزَابِ	الفِرَقِ والجَماعاتِ المُجتَمِعةِ.

تفسير الآيات

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)﴾.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾.

أي: وعَجِبَ كُفَّارُ قُرَيشٍ أنْ جاءَهم رسولٌ منهم -وهو مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم وشِرْكِهم.

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا ساحِرٌ، وليس بنَبيٍّ كما يَزعُمُ.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾.

أي: أيَأمُرُنا بتَركِ عِبادةِ آلهتِنا كُلِّها، والاقتِصارِ على عبادةِ اللهِ وَحْدَه؟!

﴿إِنّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

أي: إنَّ هذا الأمرَ لَشَيءٌ في غايةِ العَجَبِ!

﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦)﴾.

﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾.

أي: وانطلَقَ الأشرافُ والكُبَراءُ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قائِلينَ: امضُوا فاستَمِرُّوا على دينِكم، واصبِروا على عبادةِ آلهتِكم، ولا تَستَجيبوا لِما يَدْعوكم إليه محمَّدٌ مِن توحيدِ اللهِ.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

أي: إنَّ ما يَدْعونا إليه محمَّدٌ مِن إفرادِ العبادةِ للهِ، وتَركِ عبادةِ آلهتِنا: لَشَيءٌ يُريدُ به الرِّئاسةَ والاستِعلاءَ علينا، فنكونُ له أتْباعًا يَحكُمُ فينا بما يَشاءُ.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)﴾.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾.

أي: ما سَمِعْنا بهذا الَّذي يَدْعونا إليه مُحمَّدٌ مِن توحيدِ اللهِ في مِلَّةِ النَّصرانيَّةِ.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾.

أي: ما هذا الَّذي يَقولُه مُحمَّدٌ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه مِن قِبَلِ نَفْسِه.

﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)﴾.

﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾.

أي: قالوا استِبعادًا واستِنكارًا: أأَنزَلَ اللهُ القُرآنَ على مُحمَّدٍ، فخُصَّ بالوَحيِ مِن دُونِنا؟!

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾.

أي: بل المُشرِكونَ في شَكٍّ مِن كَونِ القُرآنِ حَقًّا أُوحيَ إلى محمَّدٍ مِن عندِ اللهِ.

﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

أي: بلْ لم يَنزِلْ بَعْدُ بالمُشرِكينَ عَذابي؛ لِتَكذيبِهم رَسولي، وشَكِّهم في كتابي الَّذي أنزَلْتُه عليه، فلو أصابَهم العَذابُ لَأيْقَنوا بصِدقِ ما كانوا يَشُكُّونَ فيه، ويُكَذِّبونَ به.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)﴾.

أي: أمْ عِندَ المُشرِكينَ مَفاتيحُ رَحمةِ رَبِّك -يا محمَّدُ- العزيزِ الغالِبِ على أمْرِه، الوهَّابِ ما يَشاءُ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه؛ مِن نُبُوَّةٍ، ومُلْكٍ، ونِعمةٍ، فيَهَبوها لِمَن شاؤُوا؟!

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠)﴾.

أي: أمْ للمُشرِكينَ مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما؟ فإنْ كان لهم ذلك فلْيَصعَدوا إذَنْ في الطُّرُقِ المُوصِلةِ لهم إلى السَّماءِ إن استَطاعوا، بحيثُ يَكونونَ قادِرينَ على القيامِ بما يُريدونَه!

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١)﴾.

أي: كُفَّارُ قُرَيشٍ جُندٌ مَهزومٌ ذَليلٌ مِنَ المُتحَزِّبينَ على إبطالِ الحَقِّ.

الفوائد التربوية

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وُجوبُ تقديمِ الأهَمِّ في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أوَّلَ ما دعا هؤلاءِ إلى التَّوحيدِ لم يَقُلْ: صَلُّوا ولا زَكُّوا ولا صُوموا ولا حُجُّوا، بل دعاهم إلى التَّوحيدِ، وهذا هو شأنُ القُرآنِ، وهذا هو شأنُ سُنَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ العَمليَّةِ؛ فإنَّه لَمَّا بَعَث مُعاذًا إلى اليَمَنِ أمَرَه أنْ يَدْعوَهم أوَّلَ ما يَدْعوهم إليه: إلى شَهادةِ «أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ».

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ إذا تواصى الكُفَّارُ فيما بيْنَهم بالصَّبرِ على آلهتِهم، فالمؤمنونَ أَولَى بالصَّبرِ على عبادةِ مَعبودِهم، والاستِقامةِ في دينِهم.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أنَّ الخَلْقَ لا يَملِكونَ خزائنَ رحمةِ اللهِ، ولا يَملِكونَ السمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما؛ ولهذا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقول: ((اللَّهُمَّ لا مانعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ))، ويَتفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُعلِّقَ رجاءَه إلَّا باللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ فعَل ذلك سَخَّرَ اللهُ له المخلوقاتِ، حتَّى البَشَرُ يُسَخِّرُهم له، لكنْ إذا تَعَلَّقَ بغيرِ اللهِ وُكِلَ إلى مَن تَعَلَّقَ به.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أنَّه لا ينبغي التَّحَدِّي إلَّا بما لا يَستطيعُه المُتَحَدَّى، وهذا يُفيدُ في بابِ المُناظرةِ، وفي بابِ النَّظَرِ؛ لأنَّ النَّاسَ ناظِرٌ ومُناظِرٌ؛ فالنَّاظِرُ هو الَّذي يَتأمَّلُ الأدِلَّةَ مِن ذاتِ نَفْسِه ويَحكُمُ عليها، والمُناظِرُ هو الَّذي يُناقِشُها مع غَيرِه، فمِن فوائدِ النَّظَرِ والمُناظَرةِ أنَّ الإنسانَ لا يَفرِضُ شَيئًا على وَجهِ التَّحَدِّي إلَّا إذا عَلِم أنَّه غيرُ مُمكِنٍ للمُتَحَدَّى؛ لأنَّه لو فَرَضَ شَيئًا يَتَحَدَّى به، ثمَّ أتَى به المُتَحَدَّى؛ بَطَلَتْ حُجَّتُه وانهارتْ، وانهارتْ قُوَّةُ المدافَعةِ والمهاجَمةِ.

المقطع الثالث

الآيات: ١٢-١٦

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

معاني الكلمات

ذُو الْأَوْتَادِ	صاحِبُ البِناءِ المُحكَمِ والمُلكِ الثَّابِتِ.
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ	هم قَومُ شُعَيبٍ.
فَوَاقٍ	رُجوع وارتداد.
قِطَّنَا	عذابَنا ونَصيبَنا وحِسابَنا.

تفسير الآيات

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢)﴾.

أي: كذَّبَتْ قبلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قَومُ نُوحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ صاحِبُ الأوتادِ.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣)﴾.

أي: وكذَّبتْ قبلَ مُشرِكي قُرَيشٍ ثَمودُ قَومُ صالِحٍ، وقَومُ لوطٍ، وأصحابُ الأشجارِ المُلتَفَّةِ الَّذين أُرسِلَ إليهم شُعَيبٌ، أولئك الأحزابُ الَّذين تَحزَّبوا على الكُفرِ باللهِ، وتكذيبِ رُسُلِه، ورَدِّ الحَقِّ.

﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾.

أي: كُلُّ تلك الأحزابِ قد وقَعَت في تَكذيبِ رُسُلِ اللهِ؛ فوجَبَ عليهم عِقابُ اللهِ؛ فلْيَحذَرِ المكَذِّبونَ بمُحمَّدٍ أن يُعاقَبوا كما عُوقِبَ مَن قَبْلَهم.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)﴾.

أي: وما يَنتَظِرُ المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ إلَّا سَماعَ النَّفخةِ الأُولى في الصُّورِ، وهي نَفخةٌ ما لها مِن رجوعٍ ولا إمهالٍ.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ استِهزاءً وتَكذيبًا: يا رَبَّنا عجِّلْ لنا نَصيبَنا الَّذي تُوعِّدْنا به مِن العذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ.

المقطع الرابع

الآيات: ١٧-٣٠

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

معاني الكلمات

الْأَيْدِ	القُوَّةِ الشَّديدةِ.
أَوَّابٌ	رَجَّاعٌ توَّابٌ.
بِالْعَشِيِّ	آخِرِ النَّهارِ مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ.
وَالْإِشْرَاقِ	وَقتِ إشراقِ الشَّمسِ.
مَحْشُورَةً	مَجموعةً.
وَشَدَدْنَا	قَوَّيْنا.
الْحِكْمَةَ	النُّبُوَّةَ.
وَفَصْلَ الْخِطَابِ	بَيانَ الكَلامِ وبلاغَتَه.

تفسير الآيات

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾.

أي: اصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه مُشرِكو قَومِك مِن كُلِّ ما يَسوؤُك مِن أقوالِهم.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- عَبْدَنا داودَ ذا القُوَّةِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((أَحَبُّ الصَّلاةِ إلى اللهِ صَلاةُ داودَ عليه السَّلامُ، وأحَبُّ الصِّيامِ إلى اللهِ صِيامُ داودَ، وكان يَنامُ نِصفَ اللَّيلِ، ويَقومُ ثُلُثَه، وينامُ سُدُسَه، ويَصومُ يَومًا، ويُفطِرُ يَومًا)). متفق عليه: البخاري (١١٣١).

وفي رواية: ((كان أعْبَدَ النَّاسِ)). أخرجه مسلم (١١٥٩).

وفي رواية: ((بَلَغ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنِّي أسْرُدُ الصَّومَ، ...)) الحديث. وفيه: قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((فصُمْ صيامَ داودَ عليه السَّلامُ. قالَ: وكيفَ؟ قال: كانَ يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى)). متفق عليه: البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩).

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

أي: إنَّه كَثيرُ التَّوبةِ والتَّضَرُّعِ والوُقوفِ عندَ حُدودِ اللهِ، رجَّاعٌ عمَّا يَكرَهُه اللهُ إلى ما يُحِبُّه ويَرضاه.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨)﴾.

أي: إنَّا ذلَّلْنا الجِبالَ يُسَبِّحْنَ اللهَ مع داودَ في آخِرِ النَّهارِ، ويُسَبِّحْنَ معه في وَقتِ ارتفاعِ الشَّمسِ حينَ تُضيءُ ويَصفو شُعاعُها، وهو وَقتُ الضُّحى.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩)﴾.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾.

أي: وسَخَّرْنا الطَّيرَ مَجموعةً لداودَ.

﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾.

أي: كلٌّ رجَّاعٌ له، يُسَبِّحُ بتَسبيحِه.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

أي: وقَوَّيْنا مُلْكَ داودَ وثبَّتْناه.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾.

أي: وآتَيْناه القُدرةَ على وَضعِ الأشياءِ في مَواضِعِها الصَّحيحةِ اللَّائقةِ بها وَفْقَ ما أُوتِيَه مِن النُّبوَّةِ والعِلمِ بحَقائِقِ الأشياءِ وفَهمِها ومَعرفةِ الصَّوابِ.

﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

أي: وآتَيْنا داودَ الفَصْلَ في الكلامِ -فكان ذا بيانٍ وفَصاحةٍ- وفي الحُكمِ، فكان يَفصِلُ بيْنَ الخُصومِ.

الفوائد التربوية

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى يَمدَحُ ويُحِبُّ القُوَّةَ في طاعتِه؛ قُوَّةَ القَلبِ والبَدَنِ؛ فإنَّه يَحصُلُ منها مِن آثارِ الطَّاعةِ وحُسنِها وكَثرتِها ما لا يَحصُلُ مع الوَهَنِ وعَدَمِ القُوَّةِ، وأنَّ العبدَ يَنبغي له تعاطي أسبابِها، وعدَمُ الرُّكونِ إلى الكَسَلِ والبَطالةِ المُخِلَّةِ بالقُوَى، المُضعِفةِ للنَّفْسِ.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فيه أنَّ الرُّجوعَ إلى اللهِ تعالى في جميعِ الأُمورِ: مِن أوصافِ أنبياءِ اللهِ وخواصِّ خَلْقِه، كما أثنى اللهُ على داودَ وسُلَيمانَ بذلك؛ فلْيَقتَدِ بهما المُقتَدونَ، ولْيَهتَدِ بهُداهم السَّالِكونَ.

المقطع الخامس

الآيات: ٢١-٢٦

﴿۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ
فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم
بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي
لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي
فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ
رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ
﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

معاني الكلمات

نَبَأُ	النَّبأُ: خَبَرٌ عَظيمٌ يَحصُلُ به عِلمٌ.
الْخَصْمِ	المتخاصمين والمُتنازِعَين.
تَسَوَّرُوا	صَعِدوا وتَسَلَّقوا.
الْمِحْرَابَ	مُقَدَّمُ كُلِّ مَجلِسٍ ومُصَلًّى وأشرَفُه، ويُطلقُ على المَسجِدِ.

بَغَى	طغَى وتعدَّى.
تُشْطِطْ	تَجُرْ وتُسرِفْ وتَتجاوَزْ.
سَوَاءِ الصِّرَاطِ	قَصْدَ الطَّريقِ المُستقيمِ ووسَطَه.
أَكْفِلْنِيهَا	انزِلْ عنها لي، واجعَلْني كافِلَها.
وَعَزَّنِي	غلَبَني وقهَرَني.
الْخُلَطَاءِ	الشُّرَكاءِ.
وَخَرَّ رَاكِعًا	ألقَى بنفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا.
وَأَنَابَ	رجَعَ وتابَ.
لَزُلْفَى	قُرْبةً ودَرَجةً ومَنزِلةً.
مَآبٍ	مَرجِعٍ ومُنقَلَبٍ.

تفسير الآيات

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾.

أي: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- نبأُ المتخاصِمَينِ في قَضيَّةٍ، وخبَرُهما العَجيبُ مع داودَ؟

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾.

أي: حينَ تَسَلَّقَ المُتخاصِمانَ المِحْرابَ.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢)﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾.

أي: حينَ دَخَلوا على داودَ بَغتةً فذُعِرَ وخافَ منهم.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾.

أي: قالوا لِداودَ لَمَّا رأَوْا فَزَعَه مِن دُخولِهم عليه: لا تخَفْ؛ نحن خَصْمانِ تَعدَّى أحَدُنا على صاحبِه، وتجاوَزَ حُدودَه بغَيرِ حَقٍّ.

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾.

أي: فاقْضِ بيْنَنا بالعَدلِ، ولا تَجُرْ في القَضاءِ فتَتجاوَزَ الحَدَّ.

﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

أي: ودُلَّنا وأرشِدْنا بحُكمِك العادِلِ بيْنَنا إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ الَّذي لا الْتِباسَ فيه ولا إفراطَ ولا تَفريطَ.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)﴾.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾.

أي: قال أحَدُ الخَصمَينِ لِداودَ: إنَّ هذا أخي له تِسعٌ وتِسعونَ نَعجةً.

﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾.

أي: ولِيَ نَعجةٌ واحِدةٌ لا أملِكُ غَيْرَها، فقال لي أخي: أعطِنيها وضُمَّها إلَيَّ؛ فتَكونَ تحتَ يدي.

﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

أي: غلَبَني وقَهَرني في خِطابِه معي؛ لِيَأخُذَ مِنِّي نعجتي الوحيدةَ!

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾.

أي: قال داودُ للخَصمِ المتظَلِّمِ مِن صاحِبِه: لقد ظلَمَك أخوك بسُؤالِه أخْذَ نَعجتِك الوحيدةِ؛ لِيَضُمَّها إلى نِعاجِه الكثيرةِ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

أي: وإنَّ عادةَ كثيرٍ مِن الشُّرَكاءِ أن يَتعدَّى بعضُهم على بعضٍ، ويَظلِمَ بعضُهم بعضًا.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا منهم بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ؛ فإنَّه لا يقَعُ منهم بَغْيٌ على شُرَكائِهم، وقَليلٌ هم أولئك.

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾.

أي: وغَلَب على ظَنِّ داودَ بعدَ قَضائِه بيْن الخَصمَينِ أنَّما ابتَلَيْناه.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

أي: فطلَبَ مِن رَبِّه أن يَغفِرَ له ذَنْبَه؛ سَترًا له، وتَجاوُزًا عن مؤاخَذتِه به، وألقَى بنَفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا، ورجَعَ إلى ربِّه وإلى رِضوانِه مِن خَطيئتِه تائبًا.

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَجَد في ص، وقال: سَجَدَها داودُ تَوبةً، ونَسجُدُها شُكرًا)). أخرجه النسائي (٩٥٦)، صحيح. وأصله في البخاري.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾.

أي: فسَتَرْنا لداودَ ذلك الذَّنْبَ، وتَجاوَزْنا عن مُؤاخَذتِه به.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

أي: وإنَّ لِداودَ عِندَنا لَقُربةً مِنَّا ومَنزِلةً رَفيعةً، وحُسْنَ مَرجِعٍ ومُنقَلَبٍ.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: يا داودُ إنَّا استَخلَفْناك في الأرضِ بعدَ مَن كان قَبْلَك؛ لِتأمُرَ بالمعروفِ، وتَنهَى عن المُنكَرِ، وتُدَبِّرَ أمورَ أهلِها الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ بأمْرِنا.

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.

أي: فاحكُمْ بيْن النَّاسِ بالعَدلِ والإنصافِ، وذلك بالحَقِّ المُنَزَّلِ مِن عندِ اللهِ تعالى.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعْ هوَى نَفْسِك المُخالِفَ لأمرِ اللهِ؛ فيُضِلَّك الهوَى عن اتِّباعِ الحَقِّ المُوصِلِ لِرِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه، ويُوقِعَك في الجَورِ والظُّلمِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَحيدونَ عن طَريقِ اللهِ لهم عذابٌ شَديدٌ؛ بسَبَبِ نِسيانِهم يومَ القيامةِ، وتَرْكِهم الإيمانَ به، والاستِعدادَ له بالأعمالِ الصَّالحةِ.

الفوائد التربوية

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ فيه أنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان في أغلَبِ أحوالِه مُلازِمًا مِحرابَه لعبادةِ رَبِّه؛ ولهذا تسَوَّر الخَصمانِ عليه المحرابَ؛ لأنَّه كان إذا خلا في مِحرابِه لا يأتيه أحدٌ، فلم يجعَلْ كُلَّ وَقتِه للنَّاسِ، مع كثرةِ ما يَرِدُ عليه مِنَ الأحكامِ، بل جعَلَ له وَقتًا يخلو فيه برَبِّه، وتَقَرُّ عَينُه بعبادتِه، وتُعينُه على الإخلاصِ في جميعِ أمورِه.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّه ينبغي استِعمالُ الأدَبِ في الدُّخولِ على الحُكَّامِ وغَيرِهم؛ فإنَّ الخَصمَينِ لَمَّا دخَلَا على داودَ عليه السَّلامُ في حالةٍ غيرِ مُعتادةٍ، ومِن غيرِ البابِ المعهودِ؛ فَزِعَ منهم، واشتَدَّ عليه ذلك، ورآه غيرَ لائقٍ بالحالِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ...﴾ الآيات، في هذه القِصَّةِ دَليلٌ على التَّلَطُّفِ في رَدِّ الإنسانِ عن مَكروهٍ صَنَعه، وألَّا يُؤخَذَ بالعُنفِ ما أمكَنَ.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّه لا يَمنَعُ الحاكِمَ مِن الحُكمِ بالحَقِّ سُوءُ أدَبِ الخَصمِ، وفِعلُه ما لا يَنبَغي.

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ فيه أنَّ المَوعوظَ والمَنصوحَ ولو كان كبيرَ القَدْرِ، جَليلَ العِلمِ، إذا نصَحَه أحَدٌ أو وعَظَه: لا يَغضَبُ ولا يَشمَئِزُّ، بل يُبادِرُه بالقَبولِ والشُّكرِ؛ فإنَّ الخَصمَينِ نصَحَا داودَ عليه السَّلامُ، فلم يَشمَئِزَّ ولم يَغضَبْ.

الفوائد التربوية

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فيه أنَّ ما معهم مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ يَمنَعُهم مِنَ الظُّلمِ. وكُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا وأكثرَ عَمَلًا مِن الصَّالحاتِ، كان أبْعَدَ عن الظُّلمِ والبَغيِ.

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أنَّ العَمَلَ لا يَنفَعُ إلَّا إذا بُنِيَ على الإيمانِ وكان صالِحًا، فعَمَلٌ بلا إيمانٍ لا يُقبَلُ، وكذلك لو كان هناك إيمانٌ لكِنْ لم يكنِ العَمَلُ صالِحًا؛ لِفَقْدِ الإخلاصِ أو الاتِّباعِ فيه، فإنَّه لا يَنفعُ.

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يُفيدُ أنَّ بَغْيَ أحَدِ المُتعاشِرَينِ على عَشيرِه: مُتَفَشٍّ بيْن النَّاسِ غيرِ الصَّالحينَ مِن المؤمِنينَ.

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فيه أنَّ المخالطةَ بيْن الأقاربِ والأصحابِ، وكثرةَ التَّعلُّقاتِ الدُّنيويَّةِ الماليَّةِ: مُوجِبةٌ للتَّعادي بيْنَهم، وبَغْيِ بعضِهم على بعضٍ، وأنَّه لا يَرُدُّ عن ذلك إلَّا استِعمالُ تقوى اللهِ، والصَّبرُ على الأُمورِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وأنَّ هذا مِن أقَلِّ شَيءٍ في النَّاسِ.

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ الظنُّ بمعنى العِلمِ -واللهُ أعلمُ- أي: عَلِمَ داودُ، والدَّليلُ عليه استِغفارُه وتوبتُه؛ لأنَّ بالشَّكِّ لا يَتحقَّقُ الذَّنْبُ؛ فلِلتَّائِبينَ بعدَه أنْ يَقتَدوا به -صلَّى الله عليه وسلَّم- في التَّوبةِ، فيَستَغفِروا خارِّينَ بيْنَ يَدَيْ ربِّهم في السُّجودِ؛ لأنَّه أجْدَرُ بالغُفرانِ لصاحبِه إذا تذَلَّلَ بالسُّجودِ لخالِقِه.

الفوائد التربوية

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ فيه أنَّ الاستغفارَ والعِبادةَ -خُصوصًا الصَّلاةَ- مِن مُكَفِّراتِ الذُّنوبِ؛ فإنَّ اللهَ رَتَّب مَغفِرةَ ذَنْبِ داودَ على استِغفارِه وسُجودِه.

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ فيه أنَّ السَّبَبَ الأوَّلَ لحُصولِ الضَّلالِ هو نِسيانُ يَومِ الحِسابِ؛ لأنَّه لو كان مُتذكِّرًا ليَومِ الحِسابِ لَمَا أعرَضَ عن إعدادِ الزَّادِ لِيَومِ المعادِ، ولَمَا صارَ مُستَغرِقًا في هذه اللَّذَّاتِ الفاسِدةِ.

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ الحَذَرُ مِن الانغِماسِ في الدُّنيا؛ الَّذي يُوجِبُ نِسيانَ يومِ الحسابِ، وكلُّ لَهْوٍ يَصُدُّ عن سبيلِ اللهِ يُنسِي يومَ الحسابِ.

١٤- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ فيه التَّرهيبُ مِن نسيانِ القيامةِ.

المقطع السادس

الآيات: ٢٧-٢٩

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾

معاني الكلمات

فَوَيْلٌ	الحزنُ والهلاكُ والمشَقَّةُ مِن العذابِ.
مُبَارَكٌ	الزِّيادةِ والنَّماءِ.
لِيَدَّبَّرُوا	لِيَتأمَّلوا في معانيه، ويَتبصَّروا ما فيه.
الْأَلْبَابِ	العقولِ الزَّكيَّةِ.

تفسير الآيات

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾.

أي: وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما عَبَثًا ولَعِبًا ولَهْوًا بلا غايةٍ ولا حِكمةٍ.

﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: الظَّنُّ بأنَّا خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما باطِلًا: هو ظَنُّ الَّذين كفَروا باللهِ واليومِ الآخِرِ، فلم يَعرِفوا عَظَمةَ اللهِ وحِكمَتَه.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

أي: فوَيلٌ للَّذين كَفَروا مِن عذابِ النَّارِ في الآخِرةِ.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: بلْ أنجعَلُ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي؟!

﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

أي: بلْ أنجعَلُ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعذابَه، بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه: كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِه؟ كلَّا؛ فأولئك لا يَستَوونَ عندَ اللهِ، ولا بُدَّ أن يُجازيَ كُلًّا منهم بما يَستَحِقُّه.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾.

أي: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ-، وهو دائِمُ الخَيرِ، غزيرُ العِلمِ، كثيرُ النَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾.

أي: أنزَلْناه؛ لِيَتدَبَّرَ النَّاسُ آياتِه، فيَتفَهَّموا ويَتتَبَّعوا ظواهِرَ ألفاظِه ويتأمَّلوها، ويُكثِروا مِن إمعانِ النَّظَرِ وإعادةِ الفِكرِ فيها؛ لِيَفهَموا ما وراءَها مِن المعاني والحِكَمِ والأسرارِ.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: ولِيَتَذكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ ما غَفَلوا عنه، فيَرتَدِعوا عن كُلِّ ضَلالةٍ، ويَهتَدوا إلى الرَّشادِ في كُلِّ أمرٍ.

الفوائد التربوية

١- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ يدُلُّ على الحَثِّ على تَدبُّرِ القُرآنِ، وأنَّه مِن أفضَلِ الأعمالِ، وأنَّ القِراءةَ المُشتَمِلةَ على التَّدَبُّرِ أفضَلُ مِن سُرعةِ التِّلاوةِ الَّتي لا يَحصُلُ بها هذا المَقصودُ. وأنَّ تحديقَ ناظِرِ القَلبِ إلى معاني القرآنِ، وجَمعَ الفِكرِ على تدَبُّرِه وتعَقُّلِه؛ هو المقصودُ بإنزالِه، لا مجرَّدُ تِلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تدَبُّرٍ، وقد ذَمَّ الله تعالى الَّذين يَقرؤونه قراءةً لا تَتجاوَزُ ألفاظَه إلى معانيها ومَراميها، والله تعالى أنزَلَ كتابَه لِيَتأدَّبَ عِبادُه بآدابِه، ويَتخلَّقوا بأخلاقِه، ويَتأمَّلوا ما فيه مِن الثَّناءِ على الله تعالى، وما لم يُتدبَّرْ ذلك حتَّى يُفهَمَ لا يُمكِنُ العملُ به؛ فإنَّه رسائلُ أرسَلَها الله إلى عِبادِه لِيُنفذوها، لا لِتُقرأَ عليهم فلا يَفهموها ولا يُقيموها.

٢- ما أحَقَّ مَن عَلِم كِتابَ اللهِ أن يَزدَجِرَ بنواهيه، ويَتذكَّرَ ما شُرِحَ له فيه، ويَخشَى اللهَ ويتَّقِيَه، ويُراقِبَه ويَستحِييَه! فإنَّه حُمِّل أعباءَ الرُّسُلِ، وصار شهيدًا في القيامةِ على مَن خالَفَ مِن أهلِ المِلَلِ، ومَن أُوتِيَ عِلمَ القُرآنِ فلم يَنتفِعْ، وزجَرَتْه نواهيه فلم يَرتَدِعْ، وارتكَبَ مِن المآثِمِ قَبيحًا، ومِنَ الجرائِمِ فُضُوحًا؛ كان القُرآنُ حُجَّةً عليه، وخَصمًا لَديه؛ فالواجِبُ على مَن خَصَّه اللهُ بحِفظِ كِتابِه أن يَتلوَه حَقَّ تِلاوتِه، ويَتدَبَّرَ حقائِقَ عِبارتِه، ويَتفَهَّمَ عَجائِبَه، ويَتبَيَّنَ غرائِبَه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾.

الفوائد التربوية

٣- قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لا شَيءَ أنفَعُ للقَلبِ مِن قِراءةِ القُرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ؛ فإنَّه جامِعٌ لجَميعِ منَازِلِ السَّائِرينَ، وأحوالِ العامِلينَ، ومَقاماتِ العارِفينَ، وهو الَّذي يُورِثُ المَحَبَّةَ والشَّوقَ، والخَوفَ والرَّجاءَ، والإنابةَ والتَّوكُّلَ، والرِّضا والتَّفويضَ، والشُّكرَ والصَّبرَ، وسائِرَ الأحوالِ الَّتي بها حياةُ القَلبِ وكَمالُه.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ الحَثُّ على العِنايةِ بهذا الكتابِ والتِزامِه؛ لأنَّه إذا كان مُبارَكًا فإنَّ كُلَّ أحدٍ مِن البَشَرِ يريدُ أنْ يَنالَ بَركةَ هذا الشَّيءِ المُبارَكِ.

المقطع السابع

الآيات: ٣٠-٤٠

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾

معاني الكلمات

نِعْمَ	كلمةٌ تُستعمَلُ في المدحِ.
الصَّافِنَاتُ	الخَيلُ القائِمةُ على ثلاثِ قوائِمَ.
الْجِيَادُ	الخَيلُ السِّراعُ.
تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ	استترَتْ وتَغيَّبت بما يَحجُبُها عن الأبصارِ.
فَطَفِقَ مَسْحًا	(طَفِق): مِن أفعالِ المُقارَبةِ للشُّروعِ في الفعلِ، و(مسح): يُطلَقُ على القطعِ.
بِالسُّوقِ	جمعُ ساقٍ.

رُخَاءً	رِخوةً لَيِّنةً.
حَيْثُ أَصَابَ	حيثُ أراد.
مُقَرَّنِينَ	مَشدُودينَ.
الْأَصْفَادِ	الأغلالِ والقُيودِ.
فَامْنُنْ	أعْطِ وأنْفِقْ.
لَزُلْفَى	قُرْبى، ومَنزِلةً عاليةً.

تفسير الآيات

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)﴾.

أي: ووهَبْنا لِداودَ ابنَه سُلَيمانَ.

﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

أي: نِعمَ العَبدُ سُلَيمانُ؛ فهو كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١)﴾.

أي: إذ عُرِضَ على سُلَيمانَ في آخِرِ النَّهارِ الخَيلُ الَّتي مِن صِفاتِها أنَّها لا تَعتمِدُ بجَميعِ قوائِمِها على الأرضِ إذا وقَفَت، وأنَّها سريعةٌ في عَدْوِها إذا ركَضَت.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾.

أي: فقال سُلَيمانُ: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيلِ عن ذِكرِ ربِّي إلى أنْ غابَتْ عن أعيُنِ النَّاظِرينَ.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾.
أي: أعيدُوا لي تلك الخَيلَ، فلمَّا أعادوها إليه شَرَع يَمسَحُ سِيقانَها وأعناقَها.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)﴾.
أي: ولقد ابتَلَيْنا سُلَيمانَ واختبَرْناه، وألقَيْنا على كُرسِيِّه جَسَدًا، ثمَّ رجَعَ سُلَيمانُ إلى رَبِّه، فعَلِمَ أنَّ الَّذي حَلَّ به مِنَ البلاءِ بسَبَبِ ذَنْبٍ صَدَر منه، فتاب إلى رَبِّه.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾.
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾.
أي: قال سُلَيمانُ: رَبِّ استُرْ عليَّ ذنْبي، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتي به.

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾.
أي: وهَبْ لي مُلكًا لا يكونُ لأحَدٍ سِوايَ مِثلُه.

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم قام فصلَّى صلاةَ الصُّبحِ وهو خَلْفَه، فقرأَ فالتبَسَتْ عليه القِراءةُ، فلمَّا فرَغَ مِن صلاتِه قال: لو رأيتُموني وإبليسَ، فأهوَيتُ بيَدي، فما زِلتُ أخنُقُه حتَّى وَجدْتُ بَرْدَ لُعابِهِ بيْنَ إصْبَعَيَّ هاتَينِ: الإبهامِ والَّتي تليها! ولولا دَعوةُ أخي سُلَيمانَ لأصبَحَ مَربوطًا بساريةٍ مِن سواري المسجدِ يَتلاعَبُ به صِبيانُ المدينةِ! فمَنِ استطاع منكم ألَّا يَحولَ بيْنَه وبيْنَ القِبلةِ أحَدٌ فلْيَفعَلْ)). أخرجه أحمد (١١٩٥٩)، حسن. وقد جود ابن رجب إسناده.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.
أي: إنَّك كثيرُ الهِباتِ والعَطاءِ لِمَن تَشاءُ مِمَّا تَشاءُ مِن خزائِنِ رَحمتِك وفَضلِك.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾.
أي: فاستَجَبْنا دُعاءَ سُلَيمانَ بإعطائِه مُلكًا عَظيمًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، فذَلَّلْنا لأجْلِه الرِّيحَ طائِعةً له كيفما يأمُرُها، فتَهُبُّ رِخوةً في غايةِ اللِّينِ إلى حيثُ أراد.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)﴾.

أي: وسَخَّرْنا له الشَّياطينَ، فذلَّلنا كُلَّ بَنَّاءٍ منهم، فيَبنونَ له ما يأمُرُهم ببِنائِه؛ وذلَّلْنا كُلَّ غوَّاصٍ منهم، فيَغوصونَ له في البِحارِ، فيَستَخرِجونَ له اللآلِئَ وغَيرَها.

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨)﴾.

أي: وذَلَّلْنا لسُلَيمانَ آخَرينَ مِن مَرَدةِ الشَّياطينِ حتَّى قَرَنَهم في القُيودِ، وأوثَقَهم في الأغلالِ.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لِنَبيِّه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: هذا المُلكُ الَّذي سألْتَ هو عَطاءٌ عَظيمٌ واسِعٌ وهَبْناه لك؛ فأعْطِ مَن شِئتَ مِنَ النَّاسِ، واحرِمْ مَن شِئتَ؛ فلا حرَجَ ولا مُؤاخَذةَ عليك في ذلك.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)﴾.

أي: وإنَّ لِسُلَيمانَ عِندَنا قُربةً مِنَّا ومَنزِلةً عاليةً، وحُسنَ مَرجِعٍ.

الفوائد التربوية

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ أنَّ الأولادَ هِبةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ للعَبدِ، ويَتفرَّعُ على ذلك أنَّه يَجِبُ على العَبدِ شُكرُ اللهِ على هذه النِّعمةِ.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ- أنَّ كُلَّ ما شَغَلَ العَبدَ عن اللهِ تعالى، فإنَّه مَشؤومٌ مَذمومٌ، فلْيُفارِقْه، ولْيُقبِلْ على ما هو أنفَعُ له.

الفوائد التربوية

٣- قَولُ الله تعالى حكايةً عن سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ والأعناق﴾ فجعل سُلَيمانُ يُعَرقِبُ سُوقَها ويُقطِّعُ أعناقَها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِحِرمانِ نَفْسِه منها، مع محبَّتِه إيَّاها؛ تَوبةً منه، وتربيةً لِنَفْسِه، وهذه طريقةٌ جَليلةٌ مِن طرائِقِ تَربيةِ النَّفْسِ، ومَظاهِرِ كَمالِ التَّوبةِ بالنِّسبةِ إلى ما كان سَبَبًا في الهَفوةِ.

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ الآيات المُتعَلِّقةُ بنَدَمِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ على الاشتِغالِ بالخَيلِ عن ذِكرِ اللهِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- مَوقِعُ أُسوةٍ به في مُبادَرةِ التَّوبةِ، وتحذيرٌ مِن الوُقوعِ في الغفلةِ.

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ يدُلُّ على أنَّه يَجِبُ تَقديمُ مُهِمِّ الدِّينِ على مُهِمِّ الدُّنيا؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةَ أوَّلًا، ثمَّ بَعْدَه طَلَبَ المَملَكةَ؛ وذلك لأنَّ زَوالَ أثَرِ الذُّنوبِ هو الَّذي يَحصُلُ به المقصودُ، فالذُّنوبُ في الحقيقةِ تَتراكَمُ على القَلبِ، وتَمنَعُه مِن كثيرٍ مِن المصالِحِ، فيَسألُ الإنسانُ التَّخَلُّصَ مِن آثارِ هذه الذُّنوبِ قبْلَ أنْ يَسألَ ما يُريدُ.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدُلُّ على أنَّ طَلَبَ المَغفرةِ مِن اللهِ تعالى سبَبٌ لانفِتاحِ أبوابِ الخَيراتِ في الدُّنيا؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةَ أوَّلًا، ثمَّ توسَّلَ به إلى طَلَبِ المَملَكةِ.

الفوائد التربوية

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ فيه تنبيهٌ على القاعِدةِ المَشهورةِ: (مَن ترك شَيئًا لله عوَّضه اللهُ خيرًا منه)؛ فسُليَمانُ عليه السَّلامُ عَقَر الجِيادَ الصَّافِناتِ المحبوبةَ للنُّفوسِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ تقديمًا لمحبَّةِ اللهِ، فعَوَّضه اللهُ خيرًا مِن ذلك، بأنْ سَخَّر له الرِّيحَ الرُّخاءَ اللَّيِّنةَ الَّتي تجري بأمْرِه إلى حيثُ أرادَ وقَصَد، غُدُوُّها شَهرٌ، ورَواحُها شَهرٌ، وسَخَّر له الشَّياطينَ أهلَ الاقتِدارِ على الأعمالِ الَّتي لا يَقدِرُ عليها الآدَميُّونَ.

المقطع الثامن

الآيات: ٤١-٤٤

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

معاني الكلمات

بِنُصْبٍ	بِشَرٍّ ومَشقَّةٍ وعَناءٍ.
ارْكُضْ	اضرِبْ.
ضِغْثًا	حُزمةً وقَبضةً مِنَ الحَشيشِ أو نَحوِه.
وَلَا تَحْنَثْ	قد برَّتْ يمينُك.

تفسير الآيات

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عبْدَنا أيُّوبَ حينَ استغاثَ باللهِ تعالى قائِلًا: يا رَبِّ، إنِّي أصابَني الشَّيطانُ بتَعَبٍ وألَمٍ.

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أيُّوبَ نَبيَّ اللهِ كان في بَلائِه ثمانيَ عَشْرةَ سَنةً، فرفَضَه القَريبُ والبَعيدُ، إلَّا رجُلانِ مِن إخوانِه كانا مِن أخَصِّ إخوانِه، كانا يَغْدُوانِ إليه ويَرُوحانِ إليه، فقال أحَدُهما لصاحِبِه: أتعلَمُ، واللهِ لقد أذنَبَ أيُّوبُ ذَنْبًا ما أذنَبَه أحَدٌ! قال صاحِبُه: وما ذاك؟! قال: منذُ ثماني عَشْرةَ سَنةً لم

يَرحَمْه اللهُ فيَكشِفَ عنه! فلمَّا راحا إليه لم يَصبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذكَرَ ذلك له، فقال أيُّوبُ: لا أدري ما يقولُ! غيرَ أنَّ اللهَ يَعلَمُ أنِّي كنتُ أمُرُّ على الرَّجُلَينِ يَتنازَعانِ فيَذْكُرانِ اللهَ، فأرجِعُ إلى بيتي فأُكفِّرُ عنهما؛ كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلَّا في حَقٍّ! قال: وكان يَخرُجُ إلى حاجتِه، فإذا قضى حاجتَه أمسَكَت امرأتُه بيَدِه حتَّى يَبلُغَ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها وأُوحِيَ إلى أيُّوبَ في مكانِه أن: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطأَتْه فلَقِيَتْه يَنتَظِرُ، وأقبَلَ عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به مِن البَلاءِ، وهو على أحسَنِ ما كان! فلمَّا رأَتْه قالت: أيْ بارَكَ اللهُ فيك، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ، هذا المُبتلى؟ ووالله على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ به منك إذ كان صَحيحًا! قال: فإنِّي أنا هو. وكان له أنْدَرانِ: أنْدَرٌ للقَمحِ، وأندَرٌ للشَّعيرِ، فبَعَث اللهُ سَحابتَينِ، فلمَّا كانت إحداهما على أندَرِ القَمحِ أفرَغَت فيه الذَّهَبَ حتَّى فاض، وأفرَغَت الأخرى على أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ حتَّى فاض)).[1]

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾.

أي: فاستَجَبْنا لأيُّوبَ، وقُلْنا له: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، فحرِّكْها بها وادفَعْها.

﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

أي: فضَرَب أيُّوبُ الأرضَ برِجْلِه، فنَبَع منها ماءٌ، فقُلْنا له: هذا ماءٌ بارِدٌ تَغتَسِلُ به، وتَشرَبُ منه.

---

١. أخرجه البزار (٦٣٣٣)، وأبو يعلى (٣٦١٧) واللفظ له، وصحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخَينِ في ((المستدرك)) (٤١١٥)، وصحَّحه ابن حبَّان (٢٨٩٨)، والضياء في المختارة (٢٦١٧) ، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٤٨٥/٦): أصَحُّ ما ورد. ، وصَحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (١٤٢/٧)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٧)، والوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٤٢٤)وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٨٩٨): (إسنادُه على شرطِ مُسلمٍ).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣)﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا﴾.

أي: فاغتَسَل أيُّوبُ، وشَرِبَ مِن ذلك الماءِ، فكَشَف اللهُ ما به مِن ضُرٍّ وداءٍ، ووهَبَ له في الدُّنيا أهْلَه، ومِثلَهم معهم؛ رَحمةً مِنَ اللهِ تعالى.

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بَيْنَما أيُّوبُ يَغتَسِلُ عُريانًا، خَرَّ عليه رِجْلُ جَرَادٍ مِن ذَهَبٍ، فجَعَل يَحْثِي في ثَوبِه، فناداه رَبُّه: يا أيُّوبُ، ألمْ أكُنْ أغنَيْتُك عمَّا تَرى؟! قال: بلى يا رَبِّ، ولكِنْ لا غِنَى لي عن بَرَكَتِك!)). أخرجه البخاري (٣٣٩١).

﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أي: وتَذكيرًا لأصحابِ العُقولِ الصَّحيحةِ؛ لِيَعتَبِروا ويَتَّعِظوا، فيَقتَدوا بأيُّوبَ في صَبرِه، ويَعلَموا أنَّ عاقِبةَ الصَّبرِ الفَرَجُ، وأنَّ اللهَ يُجيبُ دُعاءَ عَبدِه إذا دعاه؛ فلا يَيْأسُوا مِن رَحمةِ الله.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

أي: وخُذْ بيَدِك -يا أيُّوبُ- حُزمةً مِن حَشيشٍ أو شماريخَ أو نحوِ ذلك، فاضرِبْ بها ضَربةً واحِدةً، فتَبَرَّ بيَمينِك، ولا تَحنَثَ فيما حلَفْتَ عليه مِنَ الضَّربِ.

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.

أي: إنَّا وجَدْنا أيُّوبَ صابِرًا على البَلاءِ العَظيمِ الَّذي ابتُلِيَ به.

﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

أي: نِعْمَ العَبدُ أيُّوبُ؛ فهو كَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى.

الفوائد التربوية

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هذه هي القِصَّةُ الثَّالِثةُ مِن القِصَصِ المذكورةِ في هذه السُّورةِ، وداودُ وسُلَيمانُ كانا ممَّن أفاض اللهُ عليه أصنافَ الآلاءِ والنَّعْماءِ، وأيوبُ كان ممَّن خَصَّه اللهُ تعالى بأنواعِ البَلاءِ، والمقصودُ مِن جميعِ هذه القِصَصِ الاعتبارُ، كأنَّ الله تعالى قال: يا محمَّدُ، اصبِرْ على سَفاهةِ قَومِك؛ فإنَّه ما كان في الدُّنيا أكثَرُ نِعمةً ومالًا وجاهًا مِن داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ، وما كان في الدُّنيا أكثَرُ بلاءً ومِحنةً مِن أيُّوبَ عليه السَّلامُ؛ فتأمَّلْ في أحوالِ هؤلاء؛ لِتَعرِفَ أنَّ أحوالَ الدُّنيا لا تَنتَظِمُ لأحَدٍ، وأنَّ العاقِلَ لا بُدَّ له مِن الصَّبرِ على المكارِهِ.

٢- الشَّكوى إلى اللهِ سُبحانَه لا تُنافي الصَّبرَ بوَجهٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ مع إخبارِه عنه بالشَّكوى إليه، في قَولِه: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فما صدَرَ مِن أيُّوبَ: دُعاءٌ، وإظهارُ فَقرٍ، وحاجةٌ إلى رَبِّه، لا شكوى ولا جَزَعٌ.

٣- عن عُمرَ بنِ السَّكَنِ، قال: (كنتُ عندَ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، فقام إليه رجُلٌ مِن أهلِ بغدادَ، فقال: يا أبا محمَّدٍ، أخبِرْني عن قولِ مُطَرِّفٍ: «لَأَنْ أُعافى فأشكُرَ، أحَبُّ إلَيَّ مِن أن أُبتلَى فأصبِرَ»، أهو أحَبُّ إليك أمْ قولُ أخيه أبي العلاءِ: «اللَّهُمَّ رَضيتُ لِنَفْسي ما رضيتَ لي»؟ قال: فسكَتَ سكتةً، ثمَّ قال: قَولُ مُطَرِّفٍ أحَبُّ إلَيَّ، فقال الرَّجُلُ: كيف وقد رَضيَ هذا لِنَفْسِه ما رَضيَه اللهُ له؟! فقال سُفْيانُ: إنِّي قرأتُ القرآنَ فوجَدْتُ صِفةَ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ مع العافيةِ الَّتي كان فيها: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ووجَدْتُ صِفةَ أيُّوبَ عليه السَّلامُ مع البلاءِ الَّذي كان فيه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، فاستَوَتِ الصِّفَتانِ، وهذا مُعافًى، وهذا مُبتَلًى، فوجَدْتُ الشُّكرَ قد قام مَقامَ الصَّبرِ، فلمَّا اعتدَلَا كانت العافيةُ مع الشُّكرِ أحَبَّ إلَيَّ مِن البلاءِ مع الصَّبرِ).

الفوائد التربوية

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ فيه تَنبيهٌ لأُولي الألبابِ على أنَّ مَن صَبَر ظَفِر، فاللهُ تعالى يَمُنُّ على العَبدِ بأكثرَ ممَّا فَقَد إذا صَبَر واحتسَبَ؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهَبَ اللهُ له أهلَه ومِثلَهم مَعَهم، فاصبِرْ تَظفَرْ.

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فيه تَذكيرٌ لِغَيرِه؛ لِيتأسَّى به كُلُّ مُبتلًى، ويَرجو مِثلَ ما رجا؛ فإنَّ رَحمةَ اللهِ واسِعةٌ، وهو عندَ القُلوبِ المُنكَسِرةِ، فما بيْنَه وبيْنَ الإجابةِ إلَّا حُسْنُ الإنابةِ؛ فمَن دام إقبالُه عليه أغناه عن غَيرِه.

المقطع التاسع

الآيات: ٤٥-٤٨

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

معاني الكلمات

أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ	أصحابِ القُوَّةِ والبَصائِرِ في الدِّينِ.
ذِكْرَى الدَّارِ	ذِكرُ الدَّارِ الآخِرةِ.
الْمُصْطَفَيْنَ	المُختارينَ.

تفسير الآيات

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)﴾.

أي: واذكرْ -يا مُحمَّدُ- عِبادَنا إبراهيمَ، وابنَه إسحاقَ، وابنَ ابنِه يَعقوبَ: أصحابَ القُوَّةِ والبَصيرةِ في دينِ اللهِ تعالى.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦)﴾.

أي: إنَّا جعَلْناهم خالِصينَ لنا بخصلةٍ خالِصةٍ، لا شَوْبَ فيها، هي تذكُّرُهم دائمًا للدَّارِ الآخرةِ، والعملُ لها، والزُّهدُ في الدُّنيا.

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧)﴾.

أي: وإنَّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ عندَ اللهِ لَمِنَ الَّذين اصطفاهم، ومِن عِبادِه الأخيارِ.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إسماعيلَ والْيَسَعَ وذا الكِفْلِ؛ فإنَّ كُلًّا منهم مِنَ الأخيارِ.

الفوائد التربوية

١- قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي: البَصائِرِ في دينِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ؛ فبالبصائِرِ يُدرَكُ الحَقُّ ويُعرَفُ، وبالقُوى يُتمَكَّنُ مِن تبليغِه وتَنفيذِه والدَّعوةِ إليه، ولذلك كان وَرَثةُ الرُّسُلِ وخُلَفاءُ الأنبياءِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- هم الَّذين قاموا بالدِّينِ عِلمًا وعَمَلًا ودَعوةً إلى اللهِ -عزَّ وجَلَّ- ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهؤلاء أتْباعُ الرُّسُلِ -صَلَواتُ اللهِ عليهم وسَلامُه- حَقًّا، وهؤلاء هم الَّذين جَمَعوا بيْنَ البَصيرةِ في الدِّينِ، والقُوَّةِ على الدَّعوةِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا...﴾: أنَّه ينبغي ذِكرُ أهلِ الخيرِ بالثَّناءِ؛ لأنَّ في ذلك فائِدَتين:

الفائِدةُ الأُولى: إحياءُ ذِكْرِ هؤلاء؛ لِيَتبيَّنَ فَضلُهم، ويُدْعَى لهم.

الفائِدةُ الثَّانيةُ: الاقتِداءُ بهم، واتِّباعُهم فيما هم عليه ممَّا استحَقُّوا به الثَّناءَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ مَن أَنعَمَ اللهُ عليه بهذه الصِّفَةِ -وهي تَذَكُّرُ الدَّارِ الآخرةِ- فإنَّ هذا مِن الأمْرِ الَّذي يَستَحِقُّ الثَّناءَ عليه هو، ويَستَحِقُّ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عليه الشُّكرَ؛ حيث لم يَجعَلْ هذا مِمَّن يَنطوي في سِلْكِ أهلِ الدُّنيا.

المقطع العاشر

الآيات: ٤٩-٥٤

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

معاني الكلمات

عدن	إقامَةٍ وخُلدٍ.
قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ	حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ.
نَفَادٍ	فَناءٍ وانقِطاعٍ.

تفسير الآيات

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾.

﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾.

أي: هذا الَّذي يُتْلَى عليكم ممَّا تقدَّم مِن أوصافِ الأنبياءِ شرَفٌ وثَناءٌ جميلٌ يُذْكَرون به أبدًا، وكيف لا يكونُ شرَفًا والمُثْني عليهم ربُّ العالَمينَ؟!

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

أي: وإنَّ للَّذينَ يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه: لَحُسْنَ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠)﴾.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾.

أي: لهم حُسنُ مآبٍ، وهو جَنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ، يَبقَونَ فيها أبدًا، فلا يُخرَجونَ مِنها، ولا يُريدونَ التَّحَوُّلَ عنها.

﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾.

أي: مُفتَّحةً لهم أبوابُها.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)﴾.

أي: مُتَّكِئينَ في تلك الجنَّاتِ، يَطلُبونَ فيها فَواكِهَ كَثيرةً مِن فاكِهةِ الجنَّةِ، وشَرابًا مِن شَرابِها.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢)﴾.

أي: وعندَ المُتَّقينَ فيها نِساءٌ قاصِراتٌ أطرافَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَرينَ سِواهم، ولا يُرِدْنَ غَيرَهم، وهُنَّ شابَّاتٌ مُتَساوياتٌ أعمارُهنَّ.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)﴾.

أي: هذا الجَزاءُ المذكورُ هو ما يَعِدُكم اللهُ به -أيُّها المُتَّقونَ- ليَومِ الحِسابِ؛ جَزاءً لكم على أعمالِكم الصَّالحةِ.

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤)﴾.

أي: إنَّ هذا الجَزاءَ المَذكورَ للمُتَّقينَ في الجنَّةِ لَرِزقُنا الَّذي نُعطيهم إيَّاه؛ كرامةً مِنَّا لهم، ليس له زَوالٌ ولا انقِطاعٌ عنهم أبَدًا.

الفوائد التربوية

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ الحَثُّ على التَّقْوى، وذلك بذِكرِ ثَوابِها؛ لأنَّ الحَثَّ على الشَّيءِ يكونُ بالأمرِ به -كما هو ظاهِرٌ-، ويكونُ بالوَعيدِ على تَركِه، والثَّناءِ على فِعلِه، وطُرُقُ الحَثِّ على الشَّيءِ مُتنَوِّعةٌ، ومنها ذِكرُ حُسْنِ المآبِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ حَثُّ النَّاسِ على العَمَلِ؛ لأنَّه كُلَّما تَذَكَّرَ الإنسانُ أنَّه سوف يُحاسَبُ عن عَمَلِه فإنَّه سوف يَحرِصُ ويَجتهِدُ في العَمَلِ؛ حتَّى لا يُحاسَبَ على شَيءٍ يكونُ عليه.

المقطع الحادي عشر

الآيات: ٥٥-٦٤

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

معاني الكلمات

لِلطَّاغِينَ	الضَّالِّينَ المُتجاوِزينَ الحَدَّ.
فَبِئْسَ	بئسَ: كلمةٌ موضوعةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، مستوفيةٌ لجميعِه.
الْمِهَادُ	الفِراشُ والقَرارُ.
حَمِيمٌ	ماءٌ شَديدُ الحَرارةِ.
وَغَسَّاق	ما يَسيلُ مِن جُلودِ أهلِ النَّارِ، وهو الصَّديدُ.
شَكْلِهِ	مِثْلِه وضَرْبِه ونَظيرِه.
أَزْوَاجٌ	أنواعٌ وأصنافٌ.
فَوْجٌ	فِرقةٌ وجماعةٌ.
مُقْتَحِمٌ	داخِلٌ كُرهًا.

صَالُوا النَّارِ	مُقاسو حَرِّها وشِدَّتِها.
زَاغَتْ	عدَلتْ ومالَتْ.

تفسير الآيات

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥)﴾.

أي: هذا الَّذي ذُكِرَ مِن الجزاءِ هو شَأنُ المتَّقينَ.

﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾.

أي: وإنَّ لِلَّذين لم يَصبِروا على ما أُمِروا به، واجتِنابِ ما نُهُوا عنه، فتَجاوَزوا حُدودَ اللهِ بالكُفرِ والظُّلمِ ومَعصيةِ اللهِ تعالى: لَشَرَّ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)﴾.

أي: وهو جَهنَّمُ، فيَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها، فبِئسَ الفِراشُ الَّذي افتَرَشوه لأنفُسِهم في الآخِرةِ؛ بسَبَبِ طُغيانِهم في الدُّنيا.

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧)﴾.

أي: هذا ماءٌ بالِغُ الحَرارةِ، وصديدٌ يَسيلُ مِن أجسادِ أهلِ النَّارِ، فلْيَذوقُوه!

﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾.

أي: ولهم عَذابٌ آخَرُ مِن نحوِ الحَميمِ والغَسَّاقِ، وعلى شاكِلتِه، ذو أنواعٍ وأصنافٍ يُعذَّبونَ بها.

وعن أبي هُرَيرةَ رضي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المَيِّتُ تَحضُرُه الملائِكةُ، فإذا كان الرَّجُلُ صالحًا قالوا: اخرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ... وإذا كان الرَّجُلُ السَّوءُ قال: اخرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثةُ كانت في الجَسَدِ الخَبيثِ، اخرُجي ذميمةً، وأبْشِري بحَميمٍ وغَسَّاقٍ وآخَرَ مِن شَكلِه أزواجٍ، فلا يَزالُ يُقالُ لها ذلك حتَّى تَخرُجَ، ثمَّ يُعرَجُ بها إلى السَّماءِ، فلا يُفتحُ لها،

فيُقالُ: مَن هذا؟ فيُقالُ: فُلانٌ، فيُقالُ: لا مَرحبًا بالنَّفْسِ الخَبيثةِ كانت في الجسَدِ الخَبيثِ، ارجِعي ذَميمةً؛ فإنَّها لا تُفتَّحُ لكِ أبوابُ السَّماءِ، فيُرسَلُ بها مِنَ السَّماءِ، ثمَّ تَصيرُ إلى القَبرِ)).

أخرجه أحمد (٨٨٩٠)، والنسائي (١٨٣٢)، ابن ماجه (٤٢٦٢)، وصححه ابن حبان والحاكم وكذا ابن حجر.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩)﴾.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾.

أي: هذه جَماعةٌ كَبيرةٌ مُقتَحِمونَ النَّارَ مَعكم.

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

أي: لا اتَّسَعَت مَداخِلُهم ومَنازِلُهم في النَّارِ؛ إنَّهم داخِلوها ومُقاسُونَ حَرَّها.

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠)﴾.

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾.

أي: قال لهم الفَوجُ الدَّاخِلونَ النَّارَ: بل أنتم لا اتَّسَعَتْ بكم أماكِنُكم؛ فأنتم دَعَوْتُمونا في الدُّنيا إلى الضَّلالِ الَّذي أفضَى بنا في الآخِرةِ إلى هذا المصيرِ!

﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

أي: فبِئسَ المُستَقَرُّ النَّارُ.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾.

أي: وقال الأتْباعُ: ربَّنا مَن أضَلَّنا في الدُّنيا فكان سَبَبًا في استِحقاقِنا عذابَ النَّارِ، فضاعِفْ له العذابَ فيها زيادةً على عَذابِه.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢)﴾.

أي وقال الطَّاغُونَ: ما بالُنا لا نَرى مَعَنا رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهم في الدُّنيا أشرارًا لا خَلاقَ لهم، يَعنُونَ بذلك المؤمنينَ؟!

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣)﴾.

أي: أكان تحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا وسخريتُنا واستهزاؤُنا منهم خطأً؛ فلم يَكونوا كذلك، وما دخَلوا النَّارَ معَنا، أم مالَتْ عنهم أبصارُنا، فلا نَراهم وهم في النَّارِ قد دخَلوها معَنا؟

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾.

أي: إنَّ ذلك الَّذي ذُكِر مِن مُراجَعاتِ أهلِ النَّارِ فيما بيْنَهم، ودُعاءِ بَعضِهم على بَعضٍ: لَحَقٌّ وصِدقٌ ثابِتٌ لا بُدَّ أن يقَعَ يومَ القيامةِ كما أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم.

الفوائد التربوية

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ مع قَولِه سُبحانَه: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أنَّ الأفضلَ للدَّاعِيةِ أنْ يَجعَلَ دَعوتَه مُشتَمِلةً على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ وذلك لأنَّ الدَّعوةَ إذا كانت مُقتَصِرةً على التَّرغيبِ صارتْ سَبَبًا للأمْنِ مِن مَكرِ اللهِ، وأنْ يَتمادَى الإنسانُ في مَعصيةِ اللهِ ويَرجو اللهَ، وإذا كانت مُقتصِرةً على التَّرهيبِ صارتْ سَبَبًا للقُنوطِ مِن رَحمةِ اللهِ، واستِبعادِ الرَّحمةِ، وهذا ضَرَرٌ، بل ينبغي أنْ يكونَ الدَّاعِيةُ جامِعًا بيْنَ هذا وهذا؛ لِيَحْمِلَ النَّاسَ على الرَّجاءِ وعلى الخَوفِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ أنَّ هذا الخِصامَ الَّذي يَقَعُ بيْنَ أهلِ النَّارِ حَقٌّ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه يجبُ على كلِّ أحدٍ ألَّا يَغتَرَّ بالسَّادةِ والمَتبوعِينَ، بل يكونُ هَمُّه نَفْسَه.

المقطع الثاني عشر

الآيات: ٦٥-٧٠

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

تفسير الآيات

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥)﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: إنَّما أنا مُنذِرٌ أُنذِرُكم عذابَ اللهِ على كُفرِكم به.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

أي: وما مِن مَعبودٍ تَصلُحُ له العِبادةُ إلَّا اللهُ الواحِدُ الَّذي لا شَريكَ له، القَهَّارُ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦)﴾.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أي: خالِقُ ومالِكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنَ الخَلقِ، المُتصَرِّفُ في ذلك كُلِّه.

﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

أي: العَزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، الَّذي يَغلِبُ كُلَّ شَيءٍ ولا يَغلِبُه شَيءٌ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧)﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُكَذِّبينَ: هذا القُرآنُ -المُشتَمِلُ على توحيدِ اللهِ، وإثباتِ رِسالتي، ووُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ بعدَ الموتِ، وغيرِ ذلك- خبَرٌ عَظيمٌ.

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)﴾.

أي: أنتم مُنصَرِفونَ عن تَصديقِه، وقَبولِه، وتَدَبُّرِه، والعمَلِ به.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)﴾.

أي: لولا وَحيُ اللهِ إليَّ لَمَا عَلِمْتُ باختِلافِ الملائِكةِ في السَّماءِ في شأنِ آدَمَ؛ فإخباري بذلك دَليلٌ واضِحٌ على صِدقِ نُبُوَّتي، وأنَّ القُرآنَ حَقٌّ مِن عندِ اللهِ تعالى.

﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قُرَيشٍ: ما يُوحي اللهُ إليَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ المَلَإِ الأعلى إلَّا لأنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، أُنذِرُكم بما يُوحَى إليَّ إنذارًا واضِحًا لا لَبْسَ فيه.

الفوائد التربوية

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ إثباتُ القَهْرِ التَّامِّ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿الْقَهَّارُ﴾، وهذا يَستَلزِمُ للمُؤمِنِ به أن يَخافَ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ مِن قَهرِه، ويَستَلزِمُ أيضًا تقويةَ المؤمِنِ الواثقِ باللهِ في قَهْرِ أعدائِه؛ لأنَّك إذا وَثِقتَ بأنَّ اللهَ هو القَهَّارُ، وأنَّ اللهَ معك لِكَونِك أتَيْتَ بالأوصافِ الَّتي تَستوجِبُ مَعيَّةَ اللهِ لك؛ فإنَّ هذا يُقَوِّيك على عَدُوِّك، وتَعلَمُ أنَّ هذا العَدُوَّ لا بُدَّ أنْ يكونَ مَقهورًا بقَهْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ هذا الَّذي يجِبُ ويَستَحِقُّ أن يُعبَدَ دونَ مَن لا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَملِكُ مِن الأمرِ شَيئًا، وليس له قُوَّةُ الاقتِدارِ، ولا بيَدِه مَغفِرةُ الذُّنوبِ والأوزارِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّه متى عَظُمَ هذا النَّبأُ العَظيمُ عَظُمَ مَن يأخُذُ بهذا النَّبأِ؛ لأنَّه أساسٌ ومِنهاجٌ وطَريقٌ، فإذا عَظُمَ عَظُمَ الآخِذُ به؛ ولهذا كانت الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ عَظيمةً مَرموقةً مَهيبةً حينَ كانت آخِذةً به.

المقطع الثالث عشر

الآيات: ٧١-٨٥

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

معاني الكلمات

فَقَعُوا	فَخِرُّوا له.
إِبْلِيسَ	هو أبو الشَّياطين.
رَجِيمٌ	مَطرودٌ مِن رحمةِ اللهِ تعالَى.
فَأَنْظِرْنِي	أخِّرْني.
لَأُغْوِيَنَّهُمْ	لأُضِلَّنَّهم، ولأستَدْعِيَنَّهم إلى المعاصي، ولأُزَيِّنَنَّ لهم.

تفسير الآيات

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)﴾.

أي: ما كان لِيَ مِن عِلمٍ باختِصامِ الملأِ الأعْلَى حِينَ قال اللهُ تعالى للمَلائِكةِ: إنِّي سأخْلُقُ بَشَرًا مِن طِينٍ، هو آدَمُ عليه السَّلامُ.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)﴾.

أي: فإذا اكتَمَل خَلْقُ آدَمَ، وصار جَسَدًا تامًّا مُتقَنًا، ونَفخْتُ فيه الرُّوحَ التي هي مِن خَلقِي، فخِرُّوا على الأرضِ ساجِدينَ لآدَمَ؛ تَحيَّةً له وتَكريمًا وتَعظيمًا.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣)﴾.

أي: فلمَّا خلَقَ اللهُ آدَمَ ونفَخَ فيه الرُّوحَ، سَجَد كلُّ الملائِكةِ لآدَمَ؛ امتِثالًا لأمْرِ اللهِ تعالَى.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾.

أي: إلَّا إبليسَ تَكبَّرَ عن السُّجودِ لآدَمَ؛ تعَظُّمًا وأنَفةً، وكان إبليسُ مِن الكافِرِينَ.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

أي: قال اللهُ: يا إبليسُ، أيُّ شَيءٍ مَنَعَك من السُّجودِ لِلَّذي كرَّمتُه بخَلْقِه بيَدَيَّ؟

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

أي: هل تَعظَّمتَ عن السُّجودِ لآدمَ، وحدَث لك الاستِكبارُ الآنَ، فتركتَ السُّجودَ له، أمْ كُنتَ كذلك مِن قَبلُ مِن المتكبِّرينَ العالِينَ، ممَّنْ لا يَليقُ أنْ تُكلَّفَ مِثلَ هذا؛ لعلوِّ مكانِك.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)﴾

أي: قال إبليسُ مُجيبًا ربَّه: أنا خيرٌ مِن آدَمَ؛ لأنَّك خلَقْتَني مِن نارٍ، وخلَقْتَ آدَمَ مِن طِينٍ؛ فلَمْ أسجُدْ له.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧)﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فاخرُجْ مِن الجَنَّةِ؛ فإنَّك مَرجومٌ.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)﴾.

أي: وإنَّ طَرْدي وإبعادي لك مِن رَحمتي: مُستَمِرٌّ وحاقٌّ عليك إلى يَومِ القِيامةِ؛ إذ يُجازَى العِبادُ، ويُلاقِي فيه إبليسُ جَزاءَه.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)﴾.

أي: قال إبليسُ: رَبِّ فأخِّرْ أجَلي وأمْهِلْني ولا تُعَذِّبْني إلى اليَومِ الذي تَبعَثُ فيه خَلْقَك.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠)﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فإنَّك مِنَ المؤخَّرينَ المُمهَلينَ.

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١)﴾.

أي: إلى اليَومِ الذي يَموتُ فيه الخلائِقُ، وهو وَقتُ النَّفخةِ الأُولى.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾.

أي: قال إبليسُ: فبعِزَّتِك لأُضِلَّنَّ آدَمَ وذُرِّيَّتَه أجمَعينَ.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾.

أي: إلَّا عِبادَك الذين أخلَصْتَهم لعِبادتِك، وعصَمْتَهم مِنِّي، فلا أستطيعُ إغواءَهم.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤)﴾.

أي: قال اللهُ: فالحقُّ، وأنا أقولُ الحَقَّ.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾.

أي: لَأملَأنَّ جَهنَّمَ مِن جِنسِك مِن الشَّياطينِ -يا إبليسُ- وممَّن تَبِعَك مِن بَني آدَمَ أجمَعينَ.

الفوائد التربوية

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ هذه القِصَّةِ: تَنبيهُ بَني آدَمَ في هذا المقامِ علَى شَرفِ أبيهم آدَمَ، وتَبيينُ عداوةِ عدوِّهم إبليسَ لهم، وما هو مُنطوٍ عليه مِنَ الحسَدِ لهم ولأبيهم آدَمَ؛ ليَحْذَروه، ولا يتَّبعوا طرائقَه، والمَنعُ مِن الحَسَدِ والكِبرِ؛ وذلك لأنَّ إبليسَ إنَّما وقَعَ فيما وقَعَ فيه بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ، والكُفَّارُ إنَّما نازَعوا مُحمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بسبَبِ الحسَدِ والكِبرِ.

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كانتْ نَزعةُ الكِبرِ والعِصيانِ كامِنةً في جِبلَّة إبليسَ، ولم يكُنْ مِن الملأِ الذي كان معهم مُثيرٌ لِما سكَنَ في نفْسِه مِن طَبعِ الكِبرِ والعِصيانِ، فلمَّا طرأَ على ذلك الملأِ مَخلوقٌ جديدٌ، وأُمِرَ أهلُ الملأِ الأعْلَى بتَعظيمِه؛ كان ذلك مُوريًا زِنادَ الكِبرِ في نفْسِ إبليسَ؛ فنشأَ عنه الكُفرُ باللهِ، وعِصيانُ أمْرِه، وهذا ناموسٌ خِلْقيٌّ جعلَه اللهُ مَبدأً لهذا العالَمِ قبلَ تَعميرِه، وهو أنْ تكونَ الحوادِثُ والمضائِقُ معيارَ الأخلاقِ والفَضيلةِ؛ فلا يُحكَمُ على نَفسٍ بتزكيةٍ أو ضِدِّها إلَّا بعدَ تَجربتِها، ومُلاحَظةِ تصَرُّفاتِها عند حُلولِ الحوادِثِ بها.

الفوائد التربوية

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أنَّ مَن قَدَّمَ العَقلَ على السَّمعِ فإنَّما هو مُتَّبِعٌ لخُطواتِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ قَدَّمَ ما يَدَّعي أنَّه عَقلٌ على السَّمعِ، فأخطأَ في ذلك؛ فهكذا كلُّ مَن قَدَّمَ العَقلَ على السَّمعِ، سواءٌ في العِلميَّاتِ -وهي عِلمُ العقائدِ- أو في العَمَليَّاتِ؛ فإنَّه مُشابِهٌ لإبليسَ، مُتَّبِعٌ لخُطُواتِه، واعلَمْ أنَّ كُلَّ بَليَّةٍ تَقَعُ مِن تحريفِ الكَلِمِ عن مَواضِعِه، والاستكبارِ عن عِبادةِ اللهِ، وغيرِ ذلك: فأصلُها مِن إبليسَ.

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ أنَّ مِن أسبابِ الإعانةِ أنْ يَستعينَ الإنسانُ بما يُناسِبُ المقامَ مِن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «فبِمَغفِرتِك لأُغوينَّهم»؛ لأنَّه يُريدُ أنْ يَتَسَلَّطَ، والسُّلطةُ يُناسِبُها مِن الصِّفاتِ «العِزَّةُ» دونَ «المغفرةِ».

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ إبليسَ وَعَدَ -مُتَوسِّلًا بعِزَّةِ اللهِ- أنْ يُغويَ جميعَ بني آدمَ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ أنَّه يَجِبُ الحَذَرُ مِن إبليسَ ووَساوِسِه، فإذا وَجَدْتَ في نَفْسِك تأخُّرًا في الخَيرِ فاستَعِذْ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، وإذا وَجدْتَ في نَفْسِك إقدامًا على الشَّرِّ فاستَعِذْ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى وَعَدَ جَهنَّمَ بمَلئِها، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ الحذَرُ الشَّديدُ مِن أنْ يكونَ الإنسانُ مِن أهلِ جَهنَّمَ -نعوذُ باللهِ منها- وفي الصَّحيحَينِ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تزالُ جَهنَّمُ يُلقَى فيها وتَقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَه؛ فيَنزَوي بعضُها إلى بَعضٍ، وتقولُ: قَطْ قَطْ)). البخاري (٦٦١، ٧٣٨٤)، مسلم (٢٨٤٨).

المقطع الرابع عشر

الآيات: ٨٦-٨٨

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

معاني الكلمات

الْمُتَكَلِّفِينَ	المُتصَنِّعِينَ المدَّعينَ ما ليس عندَهم.

تفسير الآيات

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لا أسألُكم على تَبْليغي إيَّاكم القُرآنَ ورِسالةَ ربِّي أجرًا دُنيويًّا تُعطونَني إيَّاه.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

أي: وما أنا مِن الذين يَتصنَّعون ويتَحلَّوْن بما ليسوا مِن أهلِه -على ما عرَفتُم مِن حالي- حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّةَ، وأتقوَّلَ القُرآنَ، وأتكلَّفَ ما لم أُؤمَرْ به.

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (يا أيُّها النَّاسُ، مَن عَلِمَ شَيئًا فلْيَقُلْ به، ومَن لم يَعلَمْ فلْيَقُل: اللهُ أعلَمُ؛ فإنَّ مِن العِلمِ أنْ يقولَ لِما لا يَعلَمُ: اللهُ أعلَمُ؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) . أخرجه البخاري (٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾.

أي: ما هذا القُرآنُ إلَّا تَذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالَى لجَميعِ الجِنِّ والإنسِ، وشَرَفٌ ورِفعةٌ لهم إنْ عَمِلوا وتمَسَّكوا به.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾.

أي: ولَتعلَمُنَّ -أيُّها المشركونَ- صِدقَ أخبارِ القُرآنِ، وتَحقُّقَ ما فيه مِنَ الوَعدِ والوَعيدِ؛ بعدَ وَقتٍ مِن الزَّمانِ.

الفوائد التربوية

١- قال اللهُ تعالَى لِنَبيِّه عليه السَّلامُ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ولم يُطلِقْ لأحدٍ أنْ يُبلِّغَ عن اللهِ ما ائْتَمَنه عليه مِن عِلمِه ووَحْيِه بعَرَضِ الدُّنيا. وكذلك العُلماءُ نَعُدُّهم خُلفاءَ الرُّسلِ، وهمْ مُبلِّغون عن اللهِ؛ فليس لأحدٍ منْهم أنْ يَأخُذَ عليه نَوالًا مِن حُطامِ الدُّنيا؛ فقدْ كان العُلماءُ يَتوقَّون في حالةِ البَيعِ والشِّراءِ أنْ يُحابُوا أو يُزادُوا لِمكانِهم مِن العِلمِ. ورُوِيَ عن الحسَنِ البصْريِّ أنَّه قِيل له: هذا لكَ بكذا؟ فقال: (إنَّما جِئتُ أشْتَري بدِرْهمي لا بِدِيني).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فيه ذَمُّ التكَلُّفِ، والنَّهيُ عنه وعن التصَنُّعِ، وهو نَوعٌ مِنَ النِّفاقِ، وضَربٌ مِن الرِّياءِ.

٣- خَتَمَ اللهُ سُبْحانَه هذه السُّورةَ بهذه الخاتِمةِ الشَّريفةِ؛ لأنَّه تعالَى ذَكَرَ طُرُقًا كَثيرةً دالَّةً على وُجوبِ الاحْتِياطِ في طَلَبِ الدِّينِ، ثُمَّ قال عندَ الخَتْمِ: ﴿هذا الَّذي أدْعُو النَّاسَ إليْه﴾ يَجِبُ أنْ يُنْظَرَ في حالِ الدَّاعِي وفي حالِ الدَّعْوةِ؛ لِيَظْهَرَ أنَّه حقٌّ أو باطِلٌ. أمَّا الدَّاعِي -وهو أنَا- فأنَا لا أسْألُكم على هذه الدَّعْوةِ أجْرًا ومالًا، ومن الظَّاهِرِ أنَّ الكذَّابَ لا يَنقطِعُ طَمَعُه عن طَلَبِ المالِ البتَّةَ، وكان صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم بَعيدًا عن الدُّنْيا عَديمَ الرَّغْبَةِ فيها. وأمَّا كَيفِيَّةُ الدَّعْوةِ فقال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ فيه ما لا مَزيدَ عليه في التَّخويفِ والتَّرهيبِ والتَّهديدِ لِمَن أصرَّ على الجهلِ والتقليدِ، وأبَى قَبولَ البيِّناتِ، وأنه سيعلَمُ بعدَ حِينٍ إنْ كان مُصيبًا في هذا الإعراضِ، أو مُخطئًا.

قصص الأنبياء

عليهم السلام

قصة نوح عليه السلام

نوح عليه السلام

آدم الثاني، أو آدم الأصغر، وهو نبي الله نوح -صلوات الله وسلامه عليه-، وقيل له: «آدم الثاني»، أو «آدم الأصغر»؛ لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، فكل مَن على وجه الأرض هم من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام- مصداقًا لطلب نوح من ربه -تبارك وتعالى-: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

ونوح عليه السلام من أولي العَزْم من الرُّسل، بل هو أول رسولٍ أُرسِل إلى أهل الأرض، وذلك أن آدم -صلوات الله وسلامه عليه- نبيٌّ، وليسَ برسولٍ، فنوحٌ -صلوات الله وسلامه عليه- هو أول رسول أُرسِل إلى الأرض.

وقد جاء أنَّ رجلًا سأل النبيَّ ﷺ: كم كان بين آدم ونوح؟ فقال: «عشرة قرون»[1].

وجاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[2].

والقرن كما ذكر أهلُ العلمِ إمَّا أنْ يكون مئة سنة، أو أنَّ المقصود من القرن هو الجيل من الناس، فكلُّ جيلٍ قرن، فيكون قريبًا من أربعين سنة.

ونوحٌ -صلوات الله وسلامه عليه- ذُكِر في القرآن الكريم ثلاثًا وأربعين مرةً.

إنَّ الناسَ بعد آدم مكثوا قرونًا طويلةً، وهم أمةٌ واحدةٌ على التوحيد، على الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، حتى جاءتهم الشياطين، فأدخلت عليهم الشرور المتنوعة، وذلك أنَّ قومَ نوحٍ صلوات الله وسلامه عليه مات منهم أناسٌ صالحون، فجاءهم الشيطان، وأمرهم أنْ يُصَوِّروا لأولئك الصالحين صورًا، حتى إذا رأوهم تذكَّروهم، وتذكَّروا عبادتهم، فكان ذلك سببًا في نشاطهم في العبادة، واستمروا على ذلك زمنًا حتى مات أولئك القوم، فجاء مَنْ بعدهم، ثم مَنْ بعدهم، فجاءهم الشيطان، وقال لهم: إنَّ هذه الصور بها كانوا

---

١ أخرجه ابن حبان (٦١٩٠)، والطبراني في "الكبير" (٧٥٤٥)، وفي "الأوسط" (٤٠٣). من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٦٦٨، ٣٢٨٩): "وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون".

٢ أخرجه الحاكم (٣٦٥٤)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

يستشْفِعون، وبها ينزل عليهم المطر، وكانوا يدعونها، فَادْعُوها، فَدَعَوْها من دون الله -تبارك وتعالى-، وهو مصداق قول الله -تبارك وتعالى- عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، فعبدوا هذه الصور من دون الله -تبارك وتعالى-، وهذا هو المشهور عن ابن عباس -رضي الله تبارك وتعالى عنهما-.

أساليب دعوة نوح عليه السلام لقومه:

لمَّا كفر أولئك القوم من ذريةِ آدم -صلوات الله وسلامه عليه-؛ أرسل الله إليهم نبيه نوحًا، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله -تبارك وتعالى- وحده، فلم يُقَصِّر، واستخدم عدةَ أساليب في الدعوة إلى الله -جل وعلا -، فمن تلك الأساليب التي استخدمها:

أولًا: أسلوبُ التَّرغِيب، كما في قول الله -تبارك وتعالى- عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

ثانيًا: أسلوبُ التَّرهِيب، فذكرَ الله عنه أنَّه قال لهم: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

ثالثًا: أسلوبُ المُحاورة، ومنه ما ذكر الله -تبارك وتعالى- عنه أنه قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

رابعًا: أسلوبُ الصَّبر وتحمُّلِ الأذى، وكان هذا من أساليبه -صلوات الله وسلامه عليه- أن صبر وتحمل ما جاء منهم من أذى، وكلنا يعلم أن نوحًا -صلوات الله وسلامه عليه- مكث في قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا كما أخبرَ الله -تبارك وتعالى- عنه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

خامسًا: أسلوبُ التَّلَطُّفِ في الخِطاب، فكان -عليه السلام- يتلطَّفُ معهم في الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-، وذلك لما جاءوه وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء الأراذل -على قولهم- فكان قول نوح -عليه السلام-: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ

إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾.

وكذلك لمَّا اتهموه بالضَّلال، فما زاد أنْ قال -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ إي والله، كيف يكون به ضلالة، واللهُ بعثَهُ لتزول به الضلالة؟!

ولما قالوا له: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾.

وهكذا استمر في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، وقومه يكيلون له الأذى كَيْلًا، حتى إن هذا الأذى تمثَّلَ في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، هذا أول ردٍّ ردُّوا به على نوح -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ يعني: نراك اتبعك أراذلنا، وضعفاؤنا، وما اتبعك كبراؤنا.

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أي: الذين لم يتمهلوا حتى في معرفة الحق من الباطل، بل كان رأيهم سريعًا، واتخذوا القرار دُونَ تمهُّلٍ، ودُونَ دِراسةٍ، ثمَّ قالوا كذلك: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، حتى تكونوا أنتم أفضل منا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، وقالوا كذلك: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وقالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، وقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾، هذا ردُّ قوم نوح -عليه صلوات الله وسلامه-، تمثل في هذه الأمور الثمانية:

الأول: أنت بشر كمثلنا، أنتبع بشرًا مثلنا؟!

الثاني: أتْبَاعُك أراذلنا، الذين يتخذون الرأي دون دراسة.

الثالث: ما نرى لكم علينا من فضل، أنتم كأمثالنا، ما لكم علينا من فضل حتى نتبعكم.

الرابع: نظنكم كاذبين.

الخامس: نراك في ضلال مبين.

السادس: لو شاء الله لأنزل ملائكة، لِمَ لَمْ يُنْزِل ملائكة، فنتبع الملائكة؟!

السابع: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

الثامن: بك جنون.

هكذا ردُّوا على نبي الله نوح واتهموه -صلوات الله وسلامه عليه-.

قوم نوح عليه السلام يواجهوا دعوته بالرد والأذى:

ثم واجهوه بالأذى، آذوه -صلوات الله وسلامه عليه-، وإلا بِمَ صار نوح -صلوات الله وسلامه عليه- من أولي العزم من الرسل إلا لذلك الأذى الذي أصابه من قومه -صلوات الله وسلامه عليه-.

اتهموه بالجنون، وهو مِصداق قوله -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾.

واتهموه بالضَّلال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، اتهموه بالجَدَل العَقِيم: ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾.

توعَّدُوهُ بالرَّجْم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾.

سَخِروا منه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

وأساؤُوا الأَدَب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وكل هذا لمْ ينفع مع قوم نوح -صلوات الله وسلامه عليه-، وتأملوا قولهم: ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ إنْ كنتَ صادقًا أنَّك رسولٌ من الله -تبارك وتعالى- فائتنا بآيةٍ، فلا حاجة إلى الإكثار من الجِدال معنا، فقد بلَّغتنا، ونحن كذَّبناكَ، وسَئِمنا من كثرة الخُصومة معك، وقد توعدتنا بعذابٍ فأتنا بالعذاب.

نوح عليه السلام يصبر على أذى قومه:

وبقي نوح -عليه السلام- ثابتًا على دينه متوكلًا على ربه -تبارك وتعالى-، مشفقًا على أمته، دائبًا في دعوته مئاتَ السِّنين وقومه لا يزدادون إلا سخريةً منه وعنادًا وإصرارًا على ما هم عليه من الشِّرك حتى قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

وَنَسْرًا﴾، ومع هذا استمرَّ في دعوته حتى قال الله له: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، انتهى الأمر لن يؤمن أحد، أدَّيْتَ الذي عليك، ولن يتّبعك أحدٌ بعد الذين اتبعوك، عندها قال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، حكمتَ يا رب أنه لن يؤمن أحد بعد الذين آمنوا، إذًا يا ربِّ عجِّل لهم العذاب، فدعا نوح -صلوات الله عليه- على قومه، ولذلك عندما يأتي الناس نوحًا يوم القيامة فيقولون: «يا نوح أنت أول رسول أرسله الله إلى الأرض، اشفع لنا عند ربك، فيقول: إني دعوت على قومي»[1].

نوح عليه السلام والتحدي الأكبر:

كان نوح -عليه السلام- لما واجهه قومه بالأذى وتوعَّدوه بالرَّجمِ وغير ذلك تحدَّاهم أكبرَ التَّحدي، حتى قال بعضُ أهل العلم: إنَّ مُعجزة نوح -صلوات الله وسلامه عليه- تتمثل في ذلك التَّحدي الذي تحدَّى به قومه، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، هكذا تحدَّى نوح قومه -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا الكلام من نوح يدل على ثِقة ويقين، ولا يكونان أبدًا إلا لأمثالِ نوح -صلوات الله وسلامه عليه-.

وهذا التحدي تمثَّل في خمس صور:

١- قوله لهم: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، لا تختلفوا عليّ، لا يقل أحد شيئًا والآخر شيئًا، مع أن اختلافهم جيد بالنسبة له، ولكنه قال: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ لا تختلفوا عليّ، اتفقوا حتى تكونوا كالجسد الواحد.

٢- ثم قال: استعينوا بشركائكم من الجن والإنس والأصنام التي تدعونها من دون الله -تبارك وتعالى-.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، لا تكتموا، لا تسرُّوا لبعضكم البعض، لا تجلسوا في الليالي، تحدثوا نهارًا جهارًا.

٤- ﴿ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ﴾ أنجزوا، اتفقوا، اعدموني، ارجموني، افعلوا ما تشاؤون.

٥- ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، ولا تمهلوني.

استمر نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- حتى بلغ السيل الزُبى، عند ذلك قال نوح -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، و﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وذكر الله عنه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، ومنه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ عندها، بعد أن أتمَّ نوح -صلوات الله وسلامه عليه- دعوته لقومه أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

قال أهل العلم: سخروا منه لأمرين اثنين:

الأمرُ الأول: أنهم قالوا: يا نوح قد كنتَ نبيًا فصِرتَ نجارًا، فسخِروا منه.

الأمرُ الثاني: أنهم قالوا: يا نوح مَنْ يصنع السفينة يسير بها في البحر، وأنت في البرّ! ما تصنع بهذه السفينة؟

وكان نوح -صلوات الله وسلامه عليه- بكل ثِقة ويقين يقول لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، ولكن تسخرون عاجلًا، ونسخر آجلًا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

وتركوا نوحًا، وصنع السفينة، وذكروا أنه صنع السفينة في أربعينَ سنة، وذكر بعضهم أنه غرس أشجارًا ثم رَعَاها حتى قَويَت واشتدَّت، ثمَّ أخذَ منها الخشب، وصنع منها السفينة،

وكلّ هذا من روايات بني إسرائيل التي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب.

وقد بناها سفينةً عظيمةً وجعلها ثلاثةَ طوابق، وجعل الطابق السفليّ للدواب والوحوش، والطابق الأوْسَط للبشر الذين معه، والطابق الأعلى للطيور، قال الله -تبارك وتعالى- بعدما صنع نوح السفينة وأتمَّها: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ما آمن معه إلا قليل، جلس يدعو ألف سنة إلا خمسين عامًا، تسعمئة وخمسون سنة، وما آمن معه إلا قليل، فلا تحزن إذا كنت تدعو إلى الله -تبارك وتعالى- ولم يؤمن معك إلا قليل، بل لا تحزن إن لم يؤمن معك أحد، المهم احزن إن قصرتَ أنت في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، أما اتباع الناس لك فالأمر ليس في يدك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

عدد مَنْ آمن مع نوح عليه السلام:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وهذا القليل -كما ذكرت كتب أهل الكتاب- أنهم لم يتجاوزوا الثمانين من رجال ونساء.

وقال بعضهم: ثلاث وثمانين، والله أعلم بعددهم، ولكن يكفينا قول الله: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ويكفينا أنهم حملتهم مع دوابهم وطيورهم سفينة فهم لا شك قليل، وسفينة مشحونة كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: شُحنوا فيها شحنًا.

نوح عليه السلام يركب سفينته وينزل العذاب على قومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إنّ نوحًا -عليه الصلاة والسلام- لما ركب السفينة قال: بسم الله تسير وتجري، وبسم الله ترسو، فهذا نوح -عليه السلام- دائمًا يتعلق بربه -تبارك وتعالى-، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾، فجَّرّ الله الماء من الأرض

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ صارت الأرض كلها عيونًا، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ﴾ التقى ماءُ السماء بماءِ الأرض، ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قُدّر بأمر الله -تبارك وتعالى-، هنا الآن ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ تصْنَعُ سفينة في البر! صرتَ نجارًا بعد أن كنتَ نبيًا! هذا وقت السفينة ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ الدُّسُر: المسامير، ألواح ومسامير، ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أي نوحًا -عليه الصلاة والسلام- ومَنْ معه ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: برعايتنا، وعنايتنا، وحفظنا، ورحمتنا، حَفِظَها الله -تبارك وتعالى-، ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ هذا الجزاءُ يا نوح لما كفروك وعادوك وآذوك، انظر الآن كيف دمرهم الله -تبارك وتعالى-.

يقول الله -جل وعلا-: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ موج كالجبال، قد لا يستطيع الإنسان أن يتصور هذا الأمر، ولكن يكفينا أن نصدق قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا﴾ ينادي ابنه ﴿يَابُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا﴾ حتى تنجو، فقال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ﴾ يقول لابنه: ﴿يَابُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ أولئك كافرون سيهلكهم الله، وهذه شفقة في قلب نوح على ابنه، شفقةُ الأب على ابنه؛ ولذلك الله -تبارك وتعالى- وصى الإنسان بوالديه، فقال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ لكن لم يوصِ الأب أبدًا، ولم يوصِ الأم بالولد؛ لأن هذه الشفقة مغروسة في قلوبهم، في قلوب الآباء والأمهات، ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ﴾، ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ﴾ يظن أن الأمر تنفع معه الحيلة، بل هو كما في حال المؤمنين يوم القيامة عندما يمشون على الصراط، أتظنون أن الذي يمشي على الحبل في الدنيا هو الذي سيمشي على الصراط!! بل التثبيت من الله -تبارك وتعالى-، كذلك الأمر هنا، أتظن أنه كلما صعد الإنسان إلى أعلى نجا؟! لا، وإنما من أراد الله لهم النجاة ينجون، ولذلك لما قال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ﴾ جاء الرد من أبيه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ لا جبل، ولا غير جبل، ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ وهم الذين ركبوا في السفينة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ الأمر إذًا لحظات، اركب.. سآوي.. لا عاصم.. حال بينهما الموج.. ذلك أن السماء قد انفتحت كالقُرَب، والأرض تفجرت كالعيون، والتقى ماءُ السَّماء مع ماءِ الأرض حتى عَلا أعلى شاهق في الأرض، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، وأنجى الله نوحًا ومن معه.

بعد أن أغرق الله جميع الكافرين قال: ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ﴾ أدَّيتِ ما عليكِ، فهي جندٌ من جنود الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ السماء المقصود به المطر، توقف المطر، الأرض ابتلعت ما عليها، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَاءُ﴾ غِيضَ: يعني نَقَصَ، ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾، هنا توقفت السفينة على البر مرة أخرى، والجُوديّ هو اسمُ جِنسٍ يطلق على أيّ جبل، فيقال: جُوديٌّ كذا، وجُوديٌّ كذا، وجُوديٌّ كذا.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

هكذا، لحظات وانتهى كل شيء كأنه حُلم، موج، وعذاب، ولا أحد إلا نوح -عليه الصلاة والسلام- ومَنْ معه في السفينة والأرض يباب، كل من عليها هلك، كل من على وجه الأرض؛ ولذلك قيل لنوح: إنه آدم الثاني أو آدم الأصغر.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

يقول الله -تبارك وتعالى- بعد أن انتهى الأمر: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ لأن الله قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، فقال نوح: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: إنك أخبرتني أنك تُنْجِيني وأهلي وأنت أحكم الحاكمين، ما الذي حصل؟ لِمَ لَمْ ينجُ؟ ولكن هذا من أدب نوح مع ربه -تبارك وتعالى- أن تكلم بهذه الطريقة، فقال الله له: ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ إنه عمل غير صالح، ما معنى إنه عمل غير صالح؟ قال بعض أهل العلم من أهل التفسير لها معنيان:

الأول: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح؛ أي: هذا العمل منك يا نوح غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم، يعني: دعاؤك هذا عملٌ غير صالح؛ ولذلك جاء بعده التأنيب في قوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾.

الثاني: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح أي: ركوب الكافر معك، أنت لا يركب معك إلا المؤمن، وهذا كافر كيف يركب معك؟ إنه عمل غير صالح منا إذا أركبنا الكافر معك.

وهناك قراءة أخرى: «إنه عَمِلَ غير صالح» يعني: إن ابنك عَمِلَ عَمَلًا غير صالح، فلا ينجو معك، وهي قراءة سبعية صحيحة.

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه:

وهنا في غرق ولد نوح وغرق امرأته كذلك -كما سيأتي- يتبين أن الأسباب كلَّها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، وذلك أن الاتصال بين الناس مع الأنبياء فوق اتصال البنوة، والأبوة، والزوجية، بل هذا هو أشد اتصال بين الناس، أشد الناس الذين تتصل بهم في هذه الدنيا وتشفق عليهم؛ إما أن يكون اتصال أبوة «أب أو أم»، أو اتصال بنوة: «ابن أو بنت»، أو اتصال زواج، ولكن هذا الاتصال إن لم يكن معه اتصال عقدي؛ فإنه لا ينفع، ولذلك لم يغنِ نوحٌ عن ابنه وزوجته، ولم يغنِ إبراهيم عن أبيه، ولوط كذلك عن زوجته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

خيانة دين لا خيانة فراش:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ هنا: الخيانة لا شكَّ أنها خيانة الدين، وليست خيانة الفراش بأي حال من الأحوال، وذلك لأسباب كثيرة منها:

أولًا: أنه لو كان من امرأة نوح وامرأة لوط زنا؛ لكان قومهما عيراهما بهذا، كما كان يُعَيِّر نوح قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾، وغير ذلك من الاتهامات التي اتهموا فيها نوحًا، ولو كانت امرأته كذلك لقالوا: فراشك غير طاهر، فلما لم يُتهم بهذا عُلِمَ أن الخيانة لم تكن خيانة الفراش.

ثانيًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، وقال: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ وذلك أن بعضهم قال: إن ابن نوح هذا الذي لم ينجُ كان ابن زنا، وهذا كذب، بل الله سماه ابنًا له، فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ﴾، فنسبه إليه، وقال عن لوط: ﴿آلَ لُوطٍ﴾ فنسبهم إلى لوط -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثالثًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾، ونوح طيب فله الطيبات، ولكنها خبيثة في الدين، في العقيدة، فأما الخباثة في العرض فالله نزَّه أنبياءه عن ذلك.

رابعًا: لو كانت الخيانة بالزنا لما قال الله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾؛ لأن الزنا لا تخرج الإنسان من الملة، وإنما الذي أخرجها من الملة خيانةُ الدين، فلما خانت نوحًا -عليه الصلاة والسلام- في دينه؛ حكم الله عليها بدخولها النار.

خامسًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، فلا يمكن أبدًا أن الله يختار نساءً لأنبيائه أمثال هؤلاء، ولذلك نصَّ أهل العلم: أن من اتهم امرأة نبي بالزنا؛ فهو كافر خارج من ملة الإسلام.

أمَّةُ محمد ﷺ تشهد لنوح عليه السلام:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلَّغْت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي» تصوروا تسعمئة وخمسون سنة، وبعد هذا كلِّه تأتي أمة نوح يوم القيامة تقول: «ما جاءنا من نبي»، ما بلغنا، فيقول الله لنوح: «من يشهد لك؟» أنت تقول: بلغت، وهم ينكرون، من يشهد لك يا نوح فيقول: «محمد ﷺ وأمته» يقول النبي ﷺ: «فنشهد أنه قد بلغ»، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ والوسط العدل»[1].

فتشهد هذه الأمة، تشهد بماذا؟ تشهد بأن الله صادق، تشهد بأن النبي صادق، تشهد بأن ما جاء في كتاب الله حق، فتشهد أن نوحًا قد بلغ.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٣٩).

الدروس والعبر المستفادة من قصة نوح عليه السلام:

أولًا: عقاب قوم نوح فيه دليل على أن الجزاء قد يكون أحيانًا في الدنيا، وقد يكون في الآخرة.

ثانيًا: إنّ جميع الرسل من نوح إلى محمد -عليهم السلام- متفقون في الدعوة إلى التوحيد الخالص، كلهم يدعون إلى عبادة الله -تبارك وتعالى- وحده لا شريك له.

ثالثًا: من آداب الدعوة ما قام به نوح أنه دعاهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجِهارًا، وصبر على هذا صبرًا عظيمًا.

رابعًا: ينبغي ذكر الله دائمًا والاستعانة به ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُوا فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرَىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾.

وقفة:

يُروى أن نوحًا بعد هذا العمر الطويل المديد سُئل، فقيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيتٍ له بابان، دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر.

قصة هود عليه السلام

هود عليه السلام

ذكرنا أول رسول للعالمين وهو نوح عليه السلام، والآن نذكر أول رسول عربي، والرسل من العرب أربعة كما جاء في حديث أبي ذر -رضي الله عنه- أنه سأل النبي ﷺ عن الأنبياء والمرسلين، وذكر حديثا طويلًا، وفيه أن النبي قال له: "أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر"[1].

نسبه وقبيله:

يرجع نسب هود عليه السلام -كما اتفق أهل الأنساب- إلى سام بن نوح وإن اختلفوا في عدد الآباء أو أسمائهم الذين هم بين هود وسام بن نوح.

ذُكر نبي الله هود في القرآن سبع مرات، وُذكرت قبيلته وهي عاد سبعًا وعشرين مرة، وهو من هذه القبيلة التي كانت تسكن الأحقاف، فهو أخو عاد الذي أنذرهم بالأحقاف، والأحقاف جبال من الرمال في اليمن، يقال: أنها بين عمان وحضرموت في بلد هناك يقال لها: الشُّحر، وهي الآن في اليمن وهي بلد زراعية.

وعاد قوم هود من العرب، والعرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما قيل: عرب عاربة بائدة، وعرب عاربة باقية، وعرب مستعربة.

وهود من عاد، وعاد من العرب العاربة البائدة، ومثلهم قوم صالح وهم قوم ثمود وطسم وجُدَيس، هؤلاء كلهم من العرب العاربة البائدة التي لم يبقَ منها أحد، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخمة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وعاد إرم هم: عاد الأولى قوم هود، وعاد الثانية قيل: هم قوم ثمود -قوم صالح عليه السلام-، وقيل: هم من سبأ من قحطان، فالعلم عند الله تبارك وتعالى.

---

١ أخرجه ابن حبان (٣٦١) وضعف إسناده جدًا الأرناؤوط.

قوم هود أول من عبد الأصنام بعد نوح:

وهم أول من عبد الأصنام مِنْ ذرية نوح عليه السلام، بعد ما جاء الطوفان وعَمَّ الأرض كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ فقد عم الطوفان الأرض كلَّها، ولم يبق إلا ذرية نوح كما ذكرنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ وهكذا تناسلت هذه الذرية حتى وصلت إلى قوم عاد.

الصفات الخَلْقية لقوم هود عليه السلام:

ويكفينا قول الرسول ﷺ: "خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن"[1]، فآدم هو أعظم مخلوق خلقه الله تبارك وتعالى من الإنس، ثم الخلق بعد ذلك يَقْصُر إلى يومنا هذا، وهم لهم خِلْقَةٌ عظيمةٌ كما بين الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾، وقال الله عنهم: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

إرسال هود عليه السلام إلى قومه وموقفهم من ذلك:

أرسل الله تبارك وتعالى نبيه هود صلوات الله وسلامه عليه، وهو كسائر الأنبياء دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، فكان موقفهم كموقف قوم نوح من نوح، وسيكون موقف الأقوام من بعدهم كموقفهم من أنبيائهم، فكان موقف قوم هود من هود عليه السلام أن وجهوا الاتهامات إليه، وهي:

أولًا: أنهم اتهموه بالسفه، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾.

ثانيًا: اتهموه بالكذب، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، وقالوا كذلك: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثالثًا: اتهموه بالجنون صلوات الله وسلامه عليه، فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي: في عقلك.

وهذه الاتهامات التي اتهم بها هود صلوات الله وسلامه عليه هي الاتهامات نفسها التي اتهم بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِ﴾ أي: أتواصت هذه الأمم على هذه الاتهامات التي توجه إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولقد خُوّف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فكان رده عليهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا التخويف الذي خوفوا به هودًا صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، وكان الرد من هود عجيبًا، وذلك أنه قال لهم: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ موقف مِلْؤه التحدي، مِلْؤه الإيمان، مِلْؤه الثقة التامة والتوكل العظيم على الله تبارك وتعالى، وهم يقولون: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ فيرد عليهم ويقول: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ ثم أشهدكم أنتم، ﴿وَاشْهَدُوا﴾ أني بريء من هذه الآلهة، فلتفعل ما شاءت، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وسبب هذا التحدي ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ الذي هو أعظم من آلهتكم جميعًا، بل هو: ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ وهو خالقكم ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ﴾ كل ما يدب على وجه هذه الأرض، على وجه البسيطة ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الناصية مقدمة الشعر، والأخذ بالناصية يعني: يقودها قودًا رغمًا عنها، ولكن بدون ظلم وبدون حيف، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا يظلم سبحانه وتعالى.

ثم قال لهم هود صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: إن توليتم ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أدَّيت الذي عليّ ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فهو أدى ما عليه من البلاغ من أمر ربه له أن يدعوهم، ثم قال: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ فالأمر على الله يسير ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾، فالله لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية كما قال سبحانه في الحديث القدسي: "يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي

شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا"[1].

أليس هذا هو واقع قوم نوح مع نوح عليه السلام؟

رابعًا: تمسكوا بما كان عليه الآباء والأجداد، قالوا: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

خامسًا: أنكروا البعث، قالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ هكذا قالوا، ينكروا البعث، وهذا كقول من يقول: إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، قيامة! حساب! جنة! نار! لا، حياة ثم موت، وينتهي الأمر كله.

سادسًا: العناد، استخدموا العناد مع هود عليه السلام، قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ وفي هذه الآية قراءتان سبعيتان صحيحتان:

الأولى: ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهي قراءة عامّة القراء.

الثانية: خَلْقُ الأولين بفتح الخاء، وسكون اللام، وهي قراءة أبي جعفر، وأبي عمرو بن العلاء.

وكل قراءة لها معنى، فعل القراءة الأولى: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: هذه عادة الأولين يموتون وينتهي الأمر.

وأما القراءة الثانية: ﴿إِإِنْ هَٰذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾، فيحتمل أمرين اثنين:

<u>الأول:</u> يقصدون أنّ خلقهم كخلق الأولين، نموت كما ماتوا نحيا كما حيوا، لا نبعث كما لم يبعثوا إلى الآن؟

<u>الثاني:</u> أي: من الاختلاق، وهذا الكلام الذي تقُوله يا هود هو اختلاق الأولين؛ أي: كذب الأولين؛ أي: أنك تكذب يا هود فيما تقول إن هناك يومًا آخر.

---

١ أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

سابعًا: واجهوه بالكذب والبهتان فقالوا: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ما جئتنا ببينة، أنكروا أن يكون أتاهم ببينة، وهذا كذب منهم وافتراء، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، والله أصدق قيلًا سبحانه وتعالى، الله أخبرنا أن الرسل جاؤوا بالبينات، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

فائدة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وهذه الآيات لم تذكر لنا؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ حتى يذكر لنا كل شيء بالتفصيل، ولكنه كتاب هداية، وكتاب دعوة، وهو منهج يذكر الله لنا ما ننتفع به في حياتنا الدنيا، وفي أخرانا عند الله تبارك وتعالى.

الأساليب الدعوية التي استخدمها هود عليه السلام مع قومه:

أولًا: أسلوب الرقة واللين، فنجد أن قومه اتهموه بالسفه فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، فماذا كان رده عليهم؟

قال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فاستخدم معهم اللين، وقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ فيها تلطف وتودد.

ثانيًا: أسلوب النصح والتوجيه، فقال لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

ثالثًا: التذكير بنعمة الله عليه، فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾، وقال كذلك: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فذكرهم بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم.

رابعًا: الترغيب بالخير عن طريق الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

خامسًا: أسلوب الترهيب، فقال لهم لما آذوه، وبلغ الأذى مداه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أنتم سميتموها، آباؤكم سموها آله ولكن في حقيقة الأمر ليست آلهة.

سادسًا: أسلوب التحدي، فقال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

قوم هود عليه السلام يستعجلون العذاب:

عند ذلك كان رد قومه عليه السلام بعد هذه المدة، وبعد هذه الدعوة -التي لم يذكر الله لنا مدتها- بلغ عنادهم أقصاه، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ولما وصل هود إلى هذه المرحلة مع قومه ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فكانت الإجابة من الله الذي لا يضيع عبده سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ قليل فقط، وكل آتٍ فهو قريب، انقطع عنهم المطر مدة طويلة، فقيل: إنه انقطع ثلاث سنوات لم تأتهم قطرة ماء، ثم رأوا عارضًا مستقبل أوديتهم، سحابًا، قالوا: ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾.

وذكر الله تبارك وتعالى عذابهم في أكثر من موضع فقال -عز وجل-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.

وذكر في آية أخرى: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها، فنحن نرى بعض النخيل الذي يُقطع ويبقى بدون رأس، عمود فقط، هكذا صاروا والعياذ بالله، رُفعوا إلى السماء بهذه الريح القوية، ثم ضُربوا بالأرض، فصاروا أجسادًا بلا رؤوس.

سخّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام محسومًا دائمةً متتابعةً، فلم تدع من عاد أحدًا أبدًا ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، فلم يبقَ من عاد أحد إلا هود ومن آمن معه؛ لأنه اعتزل في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود، وأهلكت قوم عاد، ولذلك يقال لهم: عرب بائدة؛ أي هلكوا جميعا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، فما نجا من عذاب الله إلا هود ومن آمن معه من قومه.

الدروس والعبر من قصة هود عليه السلام:

أولًا: أن عاقبة الغرور وخِيمةٌ، وقد قيل: كم قصم الغرور من ظهور، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

ثانيًا: أن الصبر في الدعوة واللين مع المدعوين أمر مطلوب، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، وهكذا يجب على الإنسان إذا دعا إلى الله تبارك وتعالى.

ثالثًا: أن الريح جند من جنود الله تبارك وتعالى، عَذَّبَ بها أقوامًا كما في قوم هود صلوات الله وسلامه عليه، وسخرها لآخرين كما سخرها لسليمان، ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، فهي جند من جنود الله تبارك وتعالى يسخرها الله تبارك وتعالى لمن أطاعه، ويعذب بها من عصاه.

رابعًا: بيان أهمية التوكل على الله تبارك وتعالى، وذلك أن المتوكل على الله يكون جريئًا لا يهاب أحد كما فعل هود مع قومه ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾.

خامسًا: اتخاذ المباني الفخمة للخيلاء أمر مذموم ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾، أما إذا كانت هذه المباني الضخمة للحاجة فجائز، كما تتخذ مثلًا الحصون أو السدود أو أن الإنسان يتحدث بنعمة الله تبارك وتعالى ويسكن، فهذا لا بأس به أبدًا، وإنما البأس كل البأس فيمن يتخذ هذه للخيلاء والفخر على الناس جميعًا.

وأخيرًا.. لا وجود لذكر عاد شيء في الكتب القديمة -أي في التوراة والإنجيل-، وهذا لعله من حسد بني إسرائيل للعرب؛ لأن عادًا من العرب، يريدون أن يقولوا إن جميع الأنبياء من بني إسرائيل.

وهلاكهم كان استئصالًا كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾، فلم يبقَ منهم أحد ونسأل الله تبارك وتعالى أن يرحمنا برحمته.

قصة صالح عليه السلام

صالح عليه السلام

نبي الله صالح ثاني نبي عربي، وهو أيضًا من نسل سام بن نوح، وجاء ذكر نبي الله صالح في القرآن الكريم تسع مرات، وذُكرت قبيلته (ثمود) أربعًا وعشرين مرة، وقبيلة ثمود من العرب العاربة البائدة التي لم يبق لها نسل.

وثمود نسبة إلى الثَمْد، وهو الماء القليل، وكانت هذه القبيلة تسكن الحِجْر، وهم أصحاب الحِجْر، وهذا الحِجْر ما بين الحجاز وتبوك، وهو تقريبًا يبعد الآن عن المدينة المنورة ثمانين وثلاثمئة كيلو متر، جاؤوا بعد عاد كما قال الله تبارك وتعالى على لسان صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾.

اختلف أهل العلم في مكانهم فيما يعرف الآن بمدائن صالح:

المشهور أن مدائن صالح الموجودة الآن هي مدائن نبي الله صالح عليه السلام.

وثمود هي التي يقال لها: عاد الثانية، فقوم هود هم عاد الأولى، عاد إرم، وثمود يقال لها: عاد الثانية، كانوا أصحاب ماشية، وأصحاب حرث وزرع، ولكنهم بطروا نعمة الله تبارك وتعالى وكفروها كما قال الله -عز وجل- في وصف المشركين: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: تجعلون شكركم تكذيبًا فبدل أن يشكر العبد ربه تبارك وتعالى على ما أنعم عليه من النعم والخير في هذه الحياة الدنيا، فإنه جعل شكره تكذيبًا، تكذيبًا لمن أرسل إليهم رسولًا منهم، من أنفسهم، رجل يعرفونه، يعرفون خُلُقَه ويعرفون دينه ويعرفون أمانته ألا وهو: نبي الله صالح.

صالح عليه السلام يدعو قومه إلى الله عز وجل:

جاءهم نبي الله صالح فدعاهم إلى الله -عز وجل- وذكَّرهم بنعم الله العظيمة التي أنعم بها عليهم، وأتاهم بآية عظيمة، ألا وهي: آية الناقة كما سيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى، فكانت هذه الناقة تَرِدُ الماء يومًا، ويرد أهل القبيلة الماء يومًا آخر، وفي اليوم الذي لا ترد فيه القبيلة

كانوا يردون إلى الناقة فيشربون من لبنها ذلك اليوم فيكفيهم جميعًا، واستمر هذا الحال مدة طويلة إلى أن جاء اليوم الذي سئموا مما هم عليه، فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم.

أعظم الخصومة:

قال الله تبارك وتعالى في قصة صالح مع قومه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، إن أعظم خصام يكون في هذه الدنيا هو الخصام بين الكفر والإيمان، لا توجد خصومة أبدًا أعظم من هذه الخصومة، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فريق آمن بنبي الله صالح واتبعه، وفريق كفر بنبي الله صالح وخالفه، قال الله تبارك وتعالى في ذكر هؤلاء وأولئك: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، هكذا قال الكبراء المستكبرون للذين استضعفوا للذين آمنوا منهم، فليس كل الذين استضعفوا آمنوا ولكن مَنْ آمن منهم، قال لهم الكبراء: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ اتّبعتموه على بينة، اتّبعتموه على يقين؟ أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقولوا: "نعم" ولو قالوا: "نعم" لكانت إجابتهم صحيحة، ولكنهم أرادوا أن يؤكدوا اتباعهم لصالح، فهم ليسوا مصدقين أنه مرسل فقط، بل متبعون له فيما جاء به ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قالوا: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

من اتبع الأنبياء عليهم السلام:

وهكذا مضت سنة الله تبارك وتعالى، أن الضعفاء هم أتباع الأنبياء، المستضعفون الفقراء المساكين الذين لا حول ولا طول ولا قوة لهم، وذلك أنهم معتادون على تقبل الأمر والنهي، ثم هم مرؤوسون، فإذا كانوا مرؤوسين في ظالم من البشر؛ فأولى بهم أن يكونوا مرؤوسين للصالحين من البشر وهم أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، وعكسهم تمامًا الكبراء، الذين ما تعودوا أبدًا أن تُصْدَر إليهم الأوامر والنواهي، بل تعودوا أن يُصْدِروا هم الأوامر والنواهي، ما تعودوا أبدًا أن يكونوا تابعين، بل تعودوا دائمًا أن يكونوا متبوعين،

فلذلك تثقل رسالة الأنبياء على الملأ، كبار القوم، ويتقبلها الضعفاء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وهذا سبيل جميع المرسلين، كل المرسلين إنما جاؤوا بهذه الحقيقة ألا وهي: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وما جاء المرسلين لنيل دنيا، وما جاؤوا لينافسوا الناس في أرزاقهم، وإنما جاؤوا لتحقيق هذه الحقيقة العظيمة ألا وهي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ جاؤوا ليذكروا الناس بهذه الحقيقة، أنكم أيها الخلق إنما خلقكم الله تبارك وتعالى لتعبدوه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فصالح إذًا من هؤلاء الأنبياء الذين جاؤوا لتحقيق هذه الكلمة، ووالله ما نافس نوح قومه على رئاسة البلد، ولا على الحكم، ولا نافسهم هود، ولا صالح، ولا نافس نبي الله إبراهيم النمرود على الحكم، ولا نافس موسى فرعون على الحكم، ولا يوسف نازعهم على الحكم، ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا لتحقيق هذه الحقيقة العظيمة ألا وهي: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذه هي الحقيقة التي بها أُرسل جميع الأنبياء، وهكذا أيضا تكون النتيجة دائمًا، هناك من يتبع الأنبياء، وهناك من يتجبّر ويعاند ويجادل الأنبياء على ما جاؤوا به من الحق.

بداية دعوة صالح عليه السلام:

بدأ معهم صالح صلوات الله وسلامه عليه، فقال لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ لستم أنتم الذين لكم الفضل في مجيئكم إلى هذه الحياة الدنيا، بل الله سبحانه وتعالى هو الذي أنشأكم فيها، فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يُعْبَد غيرهُ؟ ماذا فعلتْ لكم هذه الأصنام حتى تُعْبَد؟ أنتم صنعتموها؟! أنتم أوجدتموها، أنتم أنشأتموها، فكيف تعبدون من أنشأتم، ولا تعبدون من أنشأكم!

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ واستعمركم هنا تحتمل معنيين:

المعنى الأول: أي: عَمّركم، بلغتهم سنين عددًا في هذه الأرض.

المعنى الثاني: أي: جعلكم مُعَمِّرين لهذه الأرض، تبنونها، ولذلك جاء في الآية الأخرى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وهذا أظهر؛ أي: جعلكم مُعَمِّرين لهذه الأرض بما تبنون فيها، فكان الرد من قومه: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا

قَبْلَ هَٰذَا﴾ قبل أن تقول مقولتك هذه قد كنت فينا مرجوًا، وهذا اعتراف منهم، كأنهم يقولون لصالح: أنت حيث تعلم من قبيلتنا، نعرف ولادتك، ونعرف خُلقك، ونعرف أمانتك، ونعرف صدقك من كذبك، نعرفك تمامًا حقَّ المعرفة، بل كنت فينا مرجوًا أن تتصدّر فينا، وأن تكون صاحب كلمتنا، وكنا نرجو فيك العقلَ، ولكنك خيَّبْت ظننا، تدعونا إلى عبادة الله! نترك ما كان عليه آباؤنا! ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

طبيعة الكافر أنه يلغي عقله:

وهذه هي طبيعة الكفار، يلغون عقولهم، لا يفكرون في الحجج التي يأتي بها رسل الله -صلوات الله وسلامه عليهم- بحجة تقليدهم للآباء، يقول الله -عز وجل-: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ طبيعة واحدة، ورواية واحدة لا تتغير، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قصة واحدة متكررة، تزيد هذه بشيء أو تنقص بشيء من مثيلاتها فقط، وهي متكررة على مَرّ الدهور والعصور.

ثم ذكَّرهم نبي الله صالح فقال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وذلك أنهم كانوا يبنون القصور الكبيرة في سهول الأرض، وينحتون الجبال، فيجعلون فيها بيوتًا، هذه كانت أعمالهم في هذه الدنيا، ولكنّهم -مع هذا- كانوا وثنيين يعبدون الأصنام.

أسلوب صالح عليه السلام في دعوة قومه:

أولًا: التذكير بعاقبة المجرمين، كما قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ تذكروا ما صنع الله بعاد، قد علمتم عاقبة عاد وثمود عاد الثانية.

ثانيًا: الوعظ والتخويف، ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، فذكرهم بنعمة الله عليهم ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ وهنا رابط النعمة بالمنعم، من الذي أنشأكم؟ الله، وإنشاؤكم نعمة، نعمة من المنعم، ألا يُشْكَر هذا المنعم.

ثالثًا: الرفق واللين واللطف: فقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ يقدم لهم عرضًا واضحًا، أنا يا قوم رسول من الله تبارك وتعالى مرسل إليكم ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾.

قوم صالح يقابلونه بالاستهزاء والرفض:

وقابلت ثمود صالحًا بأمور:

أولًا: السخرية والاستهزاء والاتهام، ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ نحن في شك من كلامك ودعوتك، وفي ريبة من أمرك، قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا، أما الآن فلست كذلك، بل اتهموه بأنه مسحور فقالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أُصبت في عقلك كما قالوا لهود، وكما قالوا لنوح، وكما سيقولون للأنبياء من بعدهم ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أيُوصي كل قوم قومًا، هي كذلك ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، شيء متكرر.

ثانيًا: رفض الدعوة رفضوا دعوته لحجج واهية، ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ تقليد أعمى، لا يجوز للإنسان أن يتحجج بمثل هذه الحجج الواهية، هل لأن آباءكم كانوا كذلك فأنتم تبقون على ما كانوا عليه؟

ولذلك لما جاء الموتُ أبا طالب وهو على فراش الموت والنبي ﷺ يذكره يقول: "يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشفع لك بها عند الله"، وفي رواية "أحاج لك بها عند الله"، فكان عنده عبد الله بن أبي سلمة -أخو أم المؤمنين أم سلمة-، وعنده أبو جهل عمرو بن هشام، فكانا يقولان له يا أبا طالب أتترك دين الأشياخ؟ أتترك ملة عبد المطلب؟[1]

يصعب على النفوس، وهذا التقليد الأعمى هو الذي أضرَّ بالكثيرين، ولذلك

---

١ أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

تأتي الآيات كثيرة في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، وهكذا تأتي الآيات: أبصر، تذكر، فكر، اعقل.

ولكنه التقليد الأعمى الذي يعمي الناس عن اتباع الحق.

ثالثًا: المكر والكيد، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ وهذا المكر منهم في قتلهم الناقة -كما سيأتي- وفي إرادتهم لقتل نبي الله صالح صلوات الله وسلامه عليه.

وكم يخطئ الجبارون والمعاندون وينخدعون بما يملكون من قوة ومكر وخداع، وما علموا أن الله أعظم مكرًا ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، هو الذي يعلم السر وأخفى، الذي لا تنام عينه سبحانه وتعالى، ولا يغفل -عز وجل-، الذي يراهم ولا يرونه، هم يمكرون والله يمكر سبحانه وتعالى ولا يكون إلا ما يريده الله -عز وجل- عند ذلك قال لهم نبي الله صالح: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، أي: أكون خاسرًا إذا أطعتكم، فهذا هو القول الأول.

وأما القول الثاني وهو أصح: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: ما تزيدونني بكلامكم هذا إلا يقينًا أنكم خاسرون، فالخسارة عائدة إليهم لا إلى صالح صلوات الله وسلامه عليه، وهذا أظهر؛ لأن في قوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، إذا قلنا أن صالحًا يقول: ما تزيدونني أنا إلا خسارًا فكأنا أثبتنا لصالح بعض الخسارة وهم يزيدونه خسارة، ولكن إذا قلنا أن التخسير عائد عليهم فهم في خسارة وإلى خسارة، فهذا أظهر.

قوم صالح عليه السلام يطلبون آية:

بعد أن دعاهم إلى الله تبارك وتعالى، وملّوا دعوته قالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ فطلبوا من صالح صلوات الله وسلامه عليه أن يأتيهم بآية، فأتاهم بآية، وهي الناقة، وذكر كثير من المفسرين نقلًا عن بني إسرائيل قصة هذه الناقة، فقالوا: جاء قوم صالح إليه، فقالوا له: إذا أردت أن نتبعك؛ أرأيت هذه الصخرة العظيمة؟ قال: نعم، قالوا: أخرج لنا منها ناقة، ونحن نتبعك، ولكن اسمع: نريدها عُشَراء، يعني الآن ولدت معها فصيلها، فقال لهم صالح عليه السلام: أرأيتم إن فعلتُ أتؤمنون؟ قالوا نعم، فقام صالح وصلى ركعتين صلوات الله

وسلامه عليه، ودعا الله -عليه السلام- فانفجرت الصخرة عن ناقة عُشَراء، فآمن بعض قوم صالح، وكفر الأكثرون.

وهذا شبيه تمامًا بقصة قريش مع النبي ﷺ لما قالوا له: إن كنت صادقًا؛ فشق لنا القمر نصفين، فقال لهم نبي الله ﷺ "أرأيتم إن فعلت وانشق القمر نصفين أتؤمنون؟" قالوا: نعم، وما لنا ألا نؤمن؟ فدعا الله تبارك وتعالى، فشق الله القمر نصفين حتى رأوا جبل أبي قبيس بينهما، بين نصفي القمر، فقالوا: جئت بسحر عظيم، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي: قوي شديد، شق القمر نصفين، وما علموا أنها الرسالة، وأنها الآيات، وليست السحر كما زعموا، وكذبوا لعمر الله تبارك وتعالى.

ولذلك قال الله -عز وجل- عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ هذا هو المشهور في كتب كثير من أهل العلم أن الناقة خرجت من الصخرة، وأما المشهور في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ أنها جاءتهم ناقة، ولم يذكر أنها خرجت من صخرة، ولم يُذكر أنها كانت عُشَراء، وإنما ذكر أنها ناقة ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إذًا هي ناقة، الله أعلم بها، خرجت من صخرة أو لم تخرج من صخرة، وإنما هي ناقة، وكانت آية، وهذه الناقة عظيمة بحيث إن الناس كلهم يشربون في يوم، والناقة تشرب في يوم ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ﴾ كل لها شِرْب، هذا هو المعلوم عن الناقة في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وأما غير ذلك فكله الله أعلم به.

المعلوم أن هذه الناقة نسبها الله لنفسه، فقال: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ والله قد ينسب الشيء إلى نفسه، مثل روح الله، ناقة الله، بيت الله، فكلها نسب الله شيئًا إلى نفسه فهذا لتعظيمه وتشريفه، إما لأن هذه الناقة لا مالك لها من البشر، فتُنسب إلى مالكها الأصلي، وهو الله سبحانه وتعالى، وإما لأنها خرجت من صخرة كما قيل، ليس لها أب معلوم ولا أم فنسبت إلى الله لأنها لم تتطور بالخلق كما يتطور غيرها، وإنما خُلقت من غير ذكر ولا أنثى، ولذلك يلغزون، فيقولون، ثلاثة لم يكونوا من ذكر ولا أنثى، ما هذه الثلاثة؟ فيقال: ناقة صالح، وعصا موسى، وسفينة نوح، يعني لم يكن لها مثيل من قبل، فالله أعلم بهذا.

الشاهد من هذا: أن هذه الناقة لها شأن عظيم، هذا الذي نريد أن نصل إليه، فقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ لا تأكل من زروعكم التي زرعتموها أنتم، ولكن تأكل من أرض

الله، مما أنبته الله سبحانه وتعالى، ثم قال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ لا تمسوا هذه الناقة بسوء، في أكلها، في شربها، في الإضرار بها، بقتلها، بعقلها، بأي سوء، و"سوء" نكرة، فتشمل أي سوء، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ﴾ إذا مسستم هذه الناقة بسوء، ثم قال: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قال الله تبارك وتعالى عن أولئك القوم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾، ثم عقروا الناقة كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

عاقر الناقة:

عاقر الناقة أخبر عنه النبي ﷺ فقال: "انتدب لها رجل ذو عزة ومنعة في قومه كأبي زمعة"[1]، ولم يذكر لنا النبي ﷺ اسمه، ولكن ذكر صفته، قال: "انتدب لها رجل ذو عزة"، يعني: أنه قليل مثله، "ومنعة" يعني صاحب شهامة وقوة، ثم قال: "ومنعة في قومه" أي: له مكانة وقدر في قومه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ والذي عقرها واحد، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَعَقَرُواْ﴾ فنسب العقر إلى الجميع، وقال في الأعراف: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ فنسب العقر إلى الجميع، ولم ينسبه إلى قَدَّار بن سالف أو مِصْرَع بن مُهَرِّج، وإنما نسبه إلى جميع ثمود، وذلك لرضا الجميع بقتل الناقة، ولذلك جاء عن قتادة رحمه الله قال: إنّ عاقر الناقة قال: لا أقتلها حتى ترضوا جميعًا، فجعلوا يذهبون ويسألون الناس حتى كانوا يدخلون على المرأة في خدرها، فيقولون: أترضين أن تقتل الناقة؟ فتقول: نعم، حتى سألوا الصِبْية: أترضى أن تُعْقَر الناقة؟ قالوا: نعم، فلذلك نسب الله تبارك وتعالى عقر الناقة إلى جميع ثمود، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أشنع الكفر والعناد والجبروت والجهل والعياذ بالله، وذلك أنهم **جمعوا في كلامهم هذا كفرًا بليغًا من أوجه كثيرة:**

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٧٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبدالله بن زمعة رضي الله عنه.

أولًا: خالفوا أمر الله وأمر رسوله؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ فهم لم يكتفوا بمسها بسوء حتى عقروها.

ثانيًا: استهزؤوا برسولهم، وذلك عندما قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهذا تكذيب له واستهزاء به صلوات الله وسلامه عليه.

ثالثًا: استعجلوا وقوع العذاب، فقالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

حال الكفار في كل زمان ومكان:

وهذا حال الكفار في كل زمان ومكان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: هذا حالهم كمثال من كان قبلهم، ويقول الله تبارك وتعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا جهل عظيم، والمفروض أن يقولوا يا صالح إن كنت من المرسلين؛ فاسأل الله أن يهدينا، أن يرحمنا، أن يتوب علينا، بل قالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

محاولة قتل نبي الله صالح:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾، وهذه جريمة ثانية أعظم من الجريمة الأولى، فالجريمة الأولى: قتل الناقة، والجريمة الثانية التي لم يتمكنوا منها: قتل صالح صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله تعالى على لسان أولئك القوم: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾، أي: حلف بعضهم لبعض، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: ندخل عليهم ليلًا، نقتله هو وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ إذًا كان له أولياء، كانت له قبيلة، وهذا يدل على أنهم كانوا يخافون منهم ويحسبون لهم ألف حساب، ولذلك قصدوه ليلًا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ عجيب، قال بعض أهل العلم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أنهم ما شاهدوهم؛ لأنهم جاؤوهم ليلًا، وقتلوهم ليلًا، في ظلمة.

أو يكون من باب الاستهزاء والسخرية ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: فيما نقول، هذا مكرهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ هم مكروا والله مكر سبحانه وتعالى، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، هذه هي النتيجة: أن الله دمرهم سبحانه وتعالى.

وقالوا: نقتل صالحًا، فإن كان صادقًا عجلناه إلى الجنة، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته، قتلوا الناقة، وقرروا أن يقتلوا نبي الله، لكن الآن التدخل من الله تبارك وتعالى، فمنع عنهم المطر تخويفًا وإنذارًا، فقال المستكبرون: إن صالحًا سبب منع المطر، وهو شؤم علينا، هو ومن معه من المؤمنين، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ الشؤم منكم، ومثل قولهم الذي جاء إلى القرية ودعاهم إلى الله تبارك وتعالى، وجاء معه مرسلون آخرون، فدعوهم إلى الله تبارك وتعالى، قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

التطير عند العرب هو أن الواحد منهم إذا قصد شيئًا: سفرًا، زواجًا، تجارة، أي شيء، يأخذ طيرًا، ثم يرسله، فإذا اتجه الطير جهة اليمين قالوا: خيرًا فيتجهون إلى مقصدهم، وإذا اتجه الطير جهة اليسار؛ قالوا: شرًّا فيمتنعون عن هذا العمل، وهذا من أجهل الجهل، فالطير بهيمة لا تفهم، ولا تدري ما يريدون من الأعمال، فهو يطير حيث يشاء يمينًا أو شمالًا.

قوم صالح عليه السلام ينتظرون العذاب ويستعجلون به:

طلب قوم صالح من صالح أن يستعجل لهم العذاب، فواعدهم صالح ثلاثة أيام، وبعدها يأتيكم العذاب، وعدٌ غير مكذوب، بدأ العذاب يوم الخميس، وذلك أنهم أصبحوا فإذا وجوههم مصفرة، كلٌ يرى الثاني وجهه مصفرًا، فلما كان يوم الجمعة فإذا وجوههم محمرة، ولما كان يوم السبت؛ فإذا وجوههم مسودة، فجلسوا في أماكنهم ينتظرون العذاب، لما جاء يوم الأحد بمجرد أن أشرقت الشمس فإذا العذاب قد عمهم جميعًا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وعدهم صالح صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وحقت الحقائق ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، لا أرواح فيهم، ولا حراك بها".

وقد ذكر الله عذابهم في أكثر من آية، فقال -عز وجل-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وقال في سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾، وقال في سورة النمل: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾، وقال في سورة فصلت: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾، وقال في سورة القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، أي: الزرع اليابس المتفتت.

قال -عز وجل- بعد أن أهلكهم وأبادهم: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾، أي: صاروا بسبب هلاكهم وخرابهم ديارًا كأن لم يقيموا بها ولم يسكنوها أبدًا، وفي هذا تحذير شديد لمن يغتر بهذه الدنيا وزخرفها، والله إنه لمشهد مؤثر ما بين الحياة والموت إلا لمحة واحدة أو غمضة عين ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾، كأن لم يكن ما سبق من حياة ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، وزروع وأنهار وخير، كأن لم يغنوا فيها.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: نبي الله صالح، وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

وهنا كلمهم بعد هلاكهم، مَرَّ عليهم وهم جثث هامدة، متناثرة، جاثمين، وهذا حق كما خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر جلس عند رأس البئر بعد أن أُلقي كفار مكة "هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا فإنا وجدنا ما وعد ربنا حقًا؟" فالتفت إليه عمر، وقال: يا رسول الله! إنهم أموات، قال: "والله يا عمر ما أنت بأسمع لي منهم"[1]، يُسْمِعهم الله، خزيٌ في الحياة الدنيا، وعذاب نفسي قبل العذاب البدني ثم يأتي العذاب الأخروي.

موقفنا من أماكن المعذبين:

عن بني عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بقرى ثمود، فاستسقى الناس من الآبار، وعجنوا، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجينة للإبل، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذبوا، وقال: "إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم لا تدخلوا عليهم"[2].

---

١ أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٣، ٢٨٧٥).

٢ أخرجه أحمد (٥٩٤٨)، ومسلم (٢٩٨١).

وبعض الجهلة يذهب إلى تلك الأماكن ويصور ويفرح ويضحك، والنبي ﷺ نهى عن ذلك، وقال: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم"[1].

وعن عامر بن سعد قال: لما كان النبي ﷺ في غزوة تبوك سارع الناس إلى أهل الحِجْر يدخلون عليهم، فقال رسول الله ﷺ: "ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟" فقال رجل: نعجب، فقال صلوات الله وسلامه عليه: "أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا، وسددوا، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئًا".

الدروس والعبر في قصة صالح عليه السلام:

أولًا: دعوة الأنبياء واحدة، ومن كذَّب واحدًا فقد كذب بالجميع كما قال الله -عز وجل- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثانيًا: العاقبة دائمًا تكون لرسل الله عليهم السلام، بعد أن يصل الطغيان إلى منتهاه، فإن الله يمهل ولا يهمل سبحانه وتعالى.

ثالثًا: من أكبر موانع قبول الحق اتباع الآباء.

رابعًا: أن الآيات مهما كانت واضحة، فإن المجرمين قد لا يهتدون بها، كما رأوا الناقة ثم لم يؤمنوا بها.

---

١ أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٨٥١)، وابن ابي شيبة في "المصنف" (٣٧٠١٢) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال في "مجمع الزوائد" (١٠٣٢٥): "فيه عبد الرحمن بن عبدالله المسعودي وقد اختلط"، وضعفه الأرناؤوط.

قصة لوط عليه السلام

لوط عليه السلام

المشهور في نسبه عند أهل الكتاب والنسابين أنه لوط بن هاران بن تارح أو آزر على الصحيح، فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه يكون عمًا له؛ لأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هو ابن آزر كما جاء مصرحًا به في كتاب الله -جل وعلا-.

لوط صلوات الله وسلامه عليه ذُكِرَ في القرآن سبعًا وعشرين مرة، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنَّ إبراهيم لما دعا إلى الله -جل وعلا- لم يؤمن به قومه، بل كفروا به وعادوه، وما آمن معه إلا قليل، وكان ممن آمن به لوط عليه السلام: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾، فهاجر إبراهيم بأهله، وهاجر معه لوط ابن أخيه.

بعثة لوط عليه السلام:

بُعث نبي الله لوط إلى قوم بلغوا غاية السفه، والجهل، وقلة الحياء، ودناءة الأخلاق، وكانوا يجمعون إلى الانحطاط في الأخلاق ممارسة المنكرات التي تستقبحها ولا ترتضيها الفطر السليمة، وذلك أن الله -جل وعلا- خلق الإنسان وجعله ذكرًا وأنثى، وجعل في الذكر ميلًا إلى الأنثى، وجعل في الأنثى ميلًا إلى الذكر، وجعل في تركيب الذكر، وتركيب الأنثى قابلية لاجتماعهما مع بعض، وجعل منهما النسل، وقد يحدث أن يشذ بعض الناس عن هذه القاعدة، فيميل الذكر إلى الذكر، وتميل الأنثى إلى الأنثى، ولذلك يقال عنهم: (شواذ)؛ لأنهم خارجون عن القاعدة، خارجون عمّا عليه عامة الناس، أما أن يشذّ المجتمع كله، فهذا هو الشيء الغريب، وهذا هو الذي أنكره لوط عليه السلام وقومه، وهذا الشذوذ لا شك أنه مدعاة لانتشار الأمراض، وفساد المجتمعات، بل انقراضها.

قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي: لولا أن الله ذكر ذلك في القرآن ما ظننتُ أن ذكرًا ينزو على ذكر لكن لما ذكره الله في القرآن علمت أنه حق.

١٠٧

قال الله -جل وعلا- عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ هذه دعوة لوط صلوات الله وسلامه عليه.

يُخبر الله -جل وعلا- أن قوم لوط كذّبوا المرسلين، ومن كذب رسولًا واحدًا فهو كمن كذّب جميع الرسل، وقال الله عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، طالما أنهم كذبوا لوطًا؛ إذًا كذبوا إبراهيم، وكذبوا نوحًا، وكذبوا موسى، وعيسى، وكذبوا جميع المرسلين.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وهذه أخوة الطين؛ لأن الأُخُوَّة أخوتان: أخوة الطين وأخوة الدين، فأخوة الطين ينسبها الله تبارك وتعالى للمرسلين مع أقوامهم، وأما أخوة الدين فهي لا تكون إلا بين المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذه أخوة الدين، وهنا قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أمين فيما أقوله وأدعو إليه من عند الله تبارك وتعالى، فلا أزيد ولا أنقص ولا أكذب على الله -جل وعلا-، ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، وهكذا جميع المرسلين، ما سألوا أحدًا أجرًا أبدًا، وإنما أجرهم على رب العالمين سبحانه وتعالى.

ثم قال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ إذًا جمعوا كفرًا وأمورًا شنيعة أخرى، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، قال لهم لوط صلوات الله وسلامه عليه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ترى ماذا كان جواب قومه؟ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ وتالله لقد جاؤوا بحجة غريبة لإخراج رسولهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، جريمة لوط وجريمة أهله أنهم أناس يتطهرون، أناس لا يتدنسون ولا يخوضون الوحل الذي خاضه قومهم، فصار ذلك مدعاة لذمهم، فجعلوا غاية المدح ذمًا، بل -والله- لا يُمدح في قوم لوط إلا لوط وأهله الذين امتنعوا عن هذه الفاحشة، وهذا دليل على فساد الفطرة عند قومه، وما دفعهم إلى ذلك إلا اللجاج والعناد -والعياذ بالله-، فكان الله -جل وعلا- في عون المصلحين من الأنبياء والدعاة، كيف يتهم المصلح بمثل هذه التهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

غاية القبح والفحش في قوم لوط عليه السلام:

جمع قوم لوط معاصٍ كثيرة، أول معصيةٍ هي الكفر بالله -جل وعلا- والكفر بلوط صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك قال الله -جل وعلا- عنهم: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِٱلْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾، والمؤتفكات هم قوم لوط، وسموا بالمؤتفكات لقلب بلدهم عليهم، من الإفك وهو قلب الخبر عن وجهه الصحيح إلى الوجه الباطل.

إذًا جريمتهم الأولى التي بها كفروا وعُذّبوا هي الكفر بالله -جل وعلا-، ولكنهم جمعوا مع هذه الجريمة الكبرى جرائمَ أخرى كبيرة، ولكنها -لا شك- أصغر من هذه الجريمة العظمى، ومن هذه الجرائم التي لم يسبقوا إليها، وصاروا مثلًا فيها ما قال لهم نبيهم لوط، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾، وهي الفاحشة التي عُرفوا بها، يأتون الرجال دون النساء، قال: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، يقطعون الطريق على المسافرين بقتلهم، وأخذ أموالهم، والاعتداء عليهم، قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ﴾ ذهب كثير من المفسرين إلى أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من ذلك، وقال آخرون من أهل التفسير عن إتيانهم في ناديهم المنكر، قالوا: عموم المنكرات من الأقوال والأفعال الشائنة.

إرسال الملائكة بالعذاب إلى قوم لوط عليه السلام:

ذكر الله -جل وعلا- أنه أرسل الملائكة إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه، ومرَّتْ هذه الرسل على إبراهيم في طريقها إلى لوط، وقالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ فترك الملائكة نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، واتجهوا إلى قرية لوط.

وذُكِرَ أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قال لهم إبراهيم: فإن فيها لوطًا، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾، ثم قيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حُسِمَ الموضوع ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فسكت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وانطلقت الرسل إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه، ودخلوا القرية: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وليست هذه عادة الأنبياء مع ضيوفهم، ولكن الأمر أعظم من ذلك، أعظم من أن يكونوا مجرَّد ضيوف، بل إن لوطًا سيء بهم لما يخاف عليهم من اعتداء قومه على أعراضهم، ضاق صدره صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، والمعروف أن هؤلاء الملائكة تصوروا بصورة البشر، وكانوا حسان الوجوه، وهكذا الملائكة إذا تشكلت بصورة البشر؛ فإنها تتشكل بصور حسنة، والشياطين تتشكل بصور قبيحة، وكان قوم لوط قد نهوه عن الضيوف، وهذا يدلنا على أمر عظيم، ألا وهو أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يعلمون الغيب، وإلا كان لوط علم أن هؤلاء ملائكة.

أدخل لوط ضيوفه إلى البيت، ثم جاءه قومه يُهرعون إليه، ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أما قلنا لك لا تضيف أحدًا.

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يُهرعون: مسرعون، كيف عرفوا؟

قالوا: أخبرتهم زوجته، وهذه خيانتها للوط، خانته في الدين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾، الخيانة في الدين، وكانت إذا رأتْ مثل ذلك أشعلتْ نارًا حتى يعلم قومها بوجود أولئك الضيوف، فهذه خيانتها للوط، خانته في الدين، ولم تخنه في عرضه، فإن الله -جل وعلا- حمى الأنبياء من أن تلطخ أعراضهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لو أن لي بكم قوة أدفعكم بها أو آوي إلى ركن شديد.

واختلف في معنى ﴿أَوْ﴾ في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أنها على ظاهرها، ويكون التقدير: (لو أني أجد قوة أدفعكم بها أو تكون هناك قبيلة)، ركن شديد آوي إليه، يدفع عني شركم.

القول الثاني: أنها للإضراب بمعنى «بل».

ويكون كذلك قول لوط صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: أدفعكم بها، ثم رجع وقال: بل آوي إلى ركن شديد، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا من تمام يقينه بالله -جل وعلا-، وتوكله عليه.

هؤلاء بناتي:

وفي قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ لأهل العلم فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أراد بناته لصلبه، يعني خذوا بناتي لصلبي، ولا تأخذوا ضيوفي؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، تزوجوا بناتي، ولا يريد ازنوا ببناتي، فإن الإنسان يموت في الدفاع عن عرضه، فكيف بنبي كريم، ولكن كأنه أرشدهم إلى الحلال الطاهر.

القول الثاني: أنه أراد بنات القرية، بشكل عام، كما في قول الله -جل وعلا-: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

القول الثالث: وهو أنه لا يريد أن يزوجهم بناته، ولكنه قالها من باب الإلزام، قالوا: كمثل أن يضرب رجلٌ رجلًا فتأتي للضارب -وهو يحترمك ويقدرك- فتقول له: لا تضربه، فيستمر في ضربه، فتقول لا تضربه اضربني أنا، وأنت تعلم علم اليقين أنه لن يضربك لمكانتك عنده، فتقول اضربني أنا إن كنت لابد فاعلًا، ولذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، لماذا تقول هؤلاء بناتي؟ وأنت تعلم علم اليقين أنه ليس لنا في بناتك من حق، وهذا لعله أقرب الأقوال في هذه المسألة.

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ حاول لوط صلوات الله وسلامه عليه أن يستثير في قومه النخوة، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾، والخزي هو: فضح الإنسان أمام الناس، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ واحد فقط يمنع القوم، يردُّهم، يدافع، يتكلم، وهذا يدل على أن المجتمع كان فاسدًا كله، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ وهو كما قيل:

تُجاب لو ناديت حيًا ولكن لا حياة لمن تنادي

وهنا التفتَ الضيوف إلى نبي الله لوط، وقالوا: ﴿يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ اطمئن، ولذلك كلما ضاق الأمر، واشتدت المحنة جاء الفرج من الله، بل يأتي الفرج كالغيث ينزل على الأرض بعد أن اشتدتْ حاجتها إليه، وفي الآية الأخرى قالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾.

نزول العذاب على قوم لوط:

لما حاولوا كسر الباب والدخول عليه خرج إليهم جبريل صلوات الله وسلامه عليه، فضرب وجوههم بطرف جناحه، فطمس أعينهم، فصاروا يتدافعون، ويصطدم بعضهم ببعض بالجدر لا يدرون أين يذهبون، ثم رجعوا إلى بيوتهم، وهددوا لوطًا وقالوا: نأتيك غدًا، انصرفوا وهدأتِ الأمور، واطمأن نبي الله لوط صلوات الله وسلامه عليه، قالت له الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وهنا قولهم: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ذُكِرَ أن لوطًا -صلوات الله وسلامه عليه- بعد هذه المحنة الشديدة قالت له الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ قال لهم لوط: «فالآن؟»، فقالت له الملائكة، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ لأن الأمر ليس بيد الملائكة، فهم رُسل، والأمر لله من قبل ومن بعد سبحانه وتعالى.

قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: بعد أن خرج لوط، وخرج معه أهله، وهنّ بناته، قال الله -جل وعلا-: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾، ولذلك سمّيت المؤتفكة، التي قُلبت رأسًا على عقب، قال: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾، والسجيل هو الحديد الشديد، ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ حجارة وراء حجارة، ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ على كل حجر اسم رجل منهم.

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

كيف فعل الله بهم؟

قيل: إن جبريل -صلوات الله وسلامه عليه- رفع القرية كلها عن وجه الأرض بجناحه حتى بلغ بها السماء الدنيا، وسمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب، وصياح الدِّيَكَة، ثم قلبها، ثم جاءتها الحجارة، ولذلك قال -جل وعلا-: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ أي: رفعها ثم أهوى بها إلى الأرض، وقوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ما المقصود بـ﴿هِيَ﴾؟

المعنى الأول: أي: أن هذه الفعلة بقوم لوط ليست ببعيدة على مَنْ يفعل مثل فعلهم؛ لنفعلن بهم كما فُعل بقوم لوط.

المعنى الثاني: أي: القرية من الظالمين ببعيد، كما قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ يعني: هذه القرية ليست بعيدة من الظالمين، بل يرونها ويعرفونها ويعرفون ماذا حل بأهلها.

حكم تسمية فعلهم الخبيث باللواط:

هل يجوز أن نقول: إن ما فعله قوم لوط «لواطًا»، كما يسميه كثير من الناس؟

الصحيح أن هذه التسمية خطأ، وقد كان شيخنا أبو عبد الله محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالى- يُنكر هذه التسمية، ويقول: من الخطأ أن نسميه لواطًا، بل نسميه كما سماه الله تبارك وتعالى، ونقول: «عمل قوم لوط» وكما سماه النبي ﷺ، أما أن تنسب إلى لوط فهذا خطأ، خطأ من حيث اللغة، وخطأ من حيث الشرع، بل وخطأ من حيث العقل.

أما خطؤها من حيث اللغة: لأن اللواط في اللغة الإصلاح، لاط يلوط لوطًا؛ أي: أصلح الشيء، ولذلك أخبر النبي ﷺ أن الساعة عندما تقوم، أول من يُصعق رجلٌ كان يلوط حوضه[1]؛ أي: يصلح حوضه.

ثم كذلك اسم لوط اسم طيب؛ أي: المصلح، وعندما نقول هذا لوطي أو هذا يلوط أو هذا لواط، هذا مثل تسمية الخمر مشروبات روحية، أو الربا فائدة، بل اللواط الإصلاح، واللوطي المصلح.

---

١ أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

وأما الخطأ من حيث الشرع: لأنه يُنسب هذا إلى لوط، ولوط بريء من ذلك، بل هو الذي كان ينهى عن هذه الفعلة الشنيعة، فصارت تنسب إليه!

وأما الخطأ من حيث العقل: أنت الآن هل تأنف أن يقال لك: «محمدي»؟ لا تأنف، بالعكس تفرح أن يقال لك: محمدي أي: أنك تابع لمحمد -صلوات الله وسلامه عليه-، ولكن يأنف الكثير أن يقال له: «لوطي» أي: نسبة إلى لوط، أو نسبة إلى اللواط، بل نسبة إلى لوط كما يقال: عيسوي، وموسوي، وإبراهيمي.

فالصحيح أن تسمية هذا الفعل الشنيع لواطًا خطأ، بل جاء في الحديث: «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط»[1]، ولم يقل: من رأيتموه يلوط أو يلاط به، فهي خطأ من حيث اللغة، وخطأ من حيث الشرع، وخطأ من حيث العقل كذلك.

حكم من وقع في هذه الفاحشة:

حكى شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع من الصحابة وغيرهم أن من فعل هذا الفعل يُقتل، وإن كانوا اختلفوا في صفة القتل:

فَنُقِلَ عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أنه قال: يُرمى من شاهق، كما فُعِلَ بقوم لوط، رُفعت قريتهم ثم أُهوي بها.

وقال علي: يهدم عليه حائط.

وقال ابن عباس: يقتل بالحجارة، الفاعل والمفعول به رجمًا، كما يفعل بالزناة.

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «وهذه الجريمة أشنع من الزنا؛ لأن وطء من لا يباح بأي صورة من الصور أشدُّ عند الله من وطء من يباح في بعض الصور»؛ لأن هذه الزانية قد تتوب ويتوب ويتزوجها ويجوز له أن يطأها، لكن بأي حال من الأحوال لا يجوز أبدًا أن يطأ رجل رجلًا.

---

١ أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، ابن ماجه (٢٥٦١).

الدروس والعبر المستفادة من قصة لوط عليه السلام:

أولًا: شناعة جريمة قوم لوط.

ثانيًا: إذا انتكست الفطرة؛ فإنها ترى القبيح حسنًا، وتصير الجريمة أمرًا مألوفًا.

ثالثًا: صبر لوط -صلوات الله وسلامه عليه- على قومه.

رابعًا: اللجوء إلى الله عندما قال: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إذا قلنا إن «أو» بمعنى «بل»، أي للإضراب.

خامسًا: سقوط الأخلاق سبب لنهاية المجتمعات، كما قيل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

سادسًا: أن قوم لوط لم يُسبَقوا في هذه الفاحشة، فهم أول من أظهر هذه الفاحشة، قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

سابعًا: كرم لوط، ورعايته لضيوفه، ومدافعته عنهم -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثامنًا: أن الزوجة لا شأن لها بزوجها إذا كانت على دين يخالف دينه، بل إن هذا لا يراعى عند الله -تبارك وتعالى-، بل الرعاية عند الله -جل وعلا- للمؤمنين.

قصة داود عليه السلام

داود عليه السلام

ذُكر نبي الله داود في كتاب الله -تبارك وتعالى- ست عشرة مرة، وقد طالت مدة ملكه -صلوات الله وسلامه عليه-، حتى قالوا: إنها بلغت أربعين سنة.

مقدمة لابد منها:

والكلام على قصة داود -صلوات الله وسلامه عليه-، يستلزم أن نقدم بمقدمة، وذلك أن بني إسرائيل انتشرت عندهم الجرائم، وعظمت المظالم، وقتلوا مَنْ قتلوا من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، فسلط الله -تبارك وتعالى- عليهم من لا يرحمُهم من جَبابِرة الملوك، يقال لهم: العماليق، فكان أن بلغ الأذى مداه، فذهبت بنو إسرائيل إلى نبي لهم، المشهور أن هذا النبي اسمه: شمويل، وقيل اسمه: سمعون، وسمي: سمعون؛ لأن الله -تبارك وتعالى- استجاب وسمع دعاء أمه له، فرزقها هذا الولد فسمَّته سمعون، ولا يعرف اسم هذا النبي على الحقيقة، بحيث لم يأتِ في كتاب الله -تبارك وتعالى- تسمية له، ولا في سنة النبي ﷺ، ولكن الذي جاء أن بني إسرائيل ذهبوا إلى نبي من أنبيائهم، وطلبوا منه أن يُعَيِّن لهم ملكًا يتبعونه ويقاتلون الجبابرة من العماليق تحت رايته، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا جهاد الدفع.

وأما جهاد الطلب فهو خاص بأمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين بعث الله نبيهم للأسود والأحمر، أما الأنبياء السابقون؛ فإنهم بُعثوا إلى أقوامهم خاصة، فما كانوا يجاهدون لنشر دينهم، وإنما كان الجهاد عندهم دفاعًا؛ ولذلك ما أحل الله لهم الغنائم، وكانوا إذا انتصروا في معاركهم جمعوا الغنائم في مكان ما، ثم نزلت نار من السماء، فأخذتها، ولذلك قال النبي ﷺ: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بخمس»، وذكر منها: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي»[1].

---

١ أخرجه البخاري برقم (٣٣٥)، وأخرج الترمذي (٣٠٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها".

قال لهم نبيهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي: أن دواعي القتال موجودة، وهي: أنَّ الأعداءَ أخرَجُونا من دِيارنا، وأخذوا أبناءنا سَبيًا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ﴾.

ثم ذكر الله -تبارك وتعالى- أن نبيهم قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، فجاء الاعتراض، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ﴾، اعترضوا لأمرين اثنين: أنهم أحقُّ بهذا الملك، وأن طالوت لم يؤتَ سعة من المال، فإذا كان الأمر كذلك كيف يكون له الملك علينا، ولا شك أن عنادهم وردَّهم لأقوال الأنبياء وعدم طاعتهم، دَيْدَنهم، وسبب اعتراضهم أن طالوت لم يكن من نَسْلِ الأنبياء، وهو أن الأنبياء في ذلك الزمن، كانوا من نَسْلِ لاوي بن يعقوب، ولم يكن طالوت كذلك من نَسْلِ الملوك، وذلك أنَّ ملوك بني إسرائيل كانوا من نسل يهوذا بن يعقوب، وطالوت على المشهور أنه من نسل بنيامين، أخي يوسف الشقيق، فالملك والنبوة كلها في نسل يعقوب، فبنو إسرائيل كلهم أولاد يعقوب -صلوات الله وسلامه عليه- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾، وهذا اختبار من الله لهم هل يستجيبون لأمر نبيهم أو يعاندون كما هي عادتهم، فلما ردّوا عليه بهذا الكلام أجابهم أن القضية ليست قضية نسل ملوك ونسل أنبياء، وهذا هو **السبب الأول** الذي من أجله تم اختيار طالوت.

السبب الثاني: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ﴾.

السبب الثالث: ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ أي: وزاده بسطة في الجسم.

ثم حذرهم قائلًا: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: ليس الأمر إليكم، الأمر لله، يؤتي ملكه من يشاء وينزع المُلك مِمَّن يشاء، يُعِزُّ مَن يشاء ويذِلُّ مَن يشاء، ولكن أين بنو إسرائيل من هذا؟ نعم استجابوا ولكن بعد تردد وعناد.

يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي: وصل إلى مكان قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ وقيل: إن هذا النهر يقال له: نهر أدمي بين الأردن وفلسطين.

قال: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ثم استثنى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، وذلك أنهم أصابهم عطش، قال سنَمُرُّ على نهر، والله مبتليكم به لا تشربوا منه، لماذا؟ حتى يختبر طاعتهم، فإذا أطاعوه هنا فسيطيعونه في المعركة، وإذا عصوه هنا سيعصونه في المعركة، ليس على طريقتي، ولا هديي، ولا سنتي، ولا يتبعني، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، ثم أخذته الشفقة عليهم؛ لأنهم عطاشى، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾، وهذه المعصية الثالثة.

يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ الذين لم يشربوا أو اغترفوا غرفة بأيديهم ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، أربعة مواقف متصلة كلها فيها كسر وتحطيم للعزيمة وأذى، وأيّ أذى.

ثم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ فنقص العدد.

ثم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، فنقص العدد حتى صاروا ثلاثمئة وثلاثة عشر، من ثمانين ألفًا لم يبقَ إلا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلًا.

ولذلك قال البراء بن عازب -رضي الله عنه- حدثني أصحاب محمد ﷺ مَنْ شهد بدرًا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمئة[1].

قال -سبحانه وتعالى-: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، وجالوت زعيم العماليق الذين أسروا أبناءهم وأخذوا ديارهم. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، إذاً القضية ليست قضية عدد، الثمانون ألفًا عجزوا، وبضعة عشر وثلاثمئة انتصروا، ليست قضية عدد ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

---

١ أخرجه البخاري (٣٩٥٧).

بداية داود عليه السلام مع بني إسرائيل:

يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ هنا ظهر اسم داود -عليه السلام-، وكان من الصفوة، من الذين ثبتوا مع طالوت، وهذا يدلنا على أنه يمكن للنبي أن يكون تابعًا لغير النبي، ولكن هذا كان قبل نبوة داود، ولكن مع هذا جعل الله طالوت ملكًا عليهم بأمره -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

داود عليه السلام يُؤتى المُلك والنبوة:

قال الله -عز وجل-: ﴿وَآتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، المُلك في الدنيا، ملك الدنيا، مَلكَ بعد طالوت، وآتاه الحكمة، وهي: النبوة.

ذُكر أن داود إنما حضر القتال مع إخوته، وكانوا ثلاثة، وكان داود صغيرًا في ذلك الوقت له سبع عشرة سنة فقط، فلما دخل هذه المعركة؛ قيل: إن جالوت خرج إليهم، وقال: من يبارزني؟ وتحدى الناس، فقام داود وقال: أنا له، فأشفق عليه طالوت، وقال: إنك صغير، قال: بل أنا له، قال: إنك صغير، قال: أنا له، قال: اخرج، وذُكر أن طالوت قال له: إن قتلته فأنت المِلكُ بعدي، وأزوجك ابنتي، وهذا جائز، فيجوز للمَلِك أن يُحفِّز الجنود بالعَطَايا، كما قال النبي ﷺ: «من قتل قتيلًا فله سَلَبُه»[1] يُشجِّعهم.

وخرج داود -عليه السلام- إليه، فلما واجهه نظر إليه جالوت، وقال: أنت صغير كيف تجرؤ أن تقاتلني؟ قال: أنا الذي سيقتلك، فغضِبَ جالوتُ من هذا الكلام، وأراد أن يضرب داود، فامتنع عن ضربته، ثم رماه بالمقلاع على المشهور، فرماه وأصابه، فَخَرَّ صريعًا قتيلًا، ثم كبّر المسلمون، فوقعت الهزيمة في جيش جالوت.

وداود -عليه الصلاة والسلام- من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، جمع الله له الملك والنبوة، كما قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

---

١ أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

ما مَنَّ الله به على داود عليه السلام:

مَنَّ الله -سبحانه وتعالى- على داودَ بأشياءٍ كثيرةٍ، منها:

أولًا: قال الله -تبارك وتعالى- لنبيه محمد ﷺ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾، فَذَكَّره بداود؛ لأنه كان صابرًا، اقتدِ بداود، صبر على ما ابتليناه به، وعلى أذى قومه.

ثانيًا: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾، فوصفه الله أنه كان قويًا في طاعة الله، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، حتى قال النبي ﷺ: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»[1].

وكان قويًا كذلك في أمره ونهيه وحُكمه ومُلْكِه، وكان قويًا في صبره على ما ابتلاه الله -عز وجل- به، فكان قويًا من كل جهة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثالثًا: قال الله عنه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: رَجَّاع إلى الله -سبحانه وتعالى-.

رابعًا: قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ الطير كذلك ناديناها لأجله، وكلها أواب؛ أي: رَجَّاع يُرَجِّع ما يقول، يسبِّح فتُسبِّح، يذكر الله فتهتز لذكر الله -عز وجل-، الطير والجبال.

خامسًا: قال تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ قويناه، قواه من ناحيتين:

الناحية الأولى: جعل هيبةً لمُلْكِه في قلوب الناس جميعًا.

الناحية الثانية: شَدَّ الله مُلْكَه بجنده، فكان به جند كثيرون، وحكم أربعين سنة.

سادسًا: قال الله عنه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾، أي: النبوة، وقد قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

سابعًا: أعطاه الله فَصْل الخِطاب، وفَصْل الخِطاب قِيل: هو الفَهْمُ القويُّ الثَّاقبُ، فإذا جاءت أمامه قضية يعرف كيف يحكم فيها -صلوات الله وسلامه عليه- وقيل: حُسْنُ الخِطاب يتكلَّم الكلام القليل، وتكون فيه المعاني الكثيرة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثامنًا: أعطاه الله الزَّبُور، ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾، فمَنَّ الله عليه بهذا الكتاب.

---

١ أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

ويقول الله -عز وجل- في تفصيل ما وقع لداود -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وقال كذلك: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾، هذا التسبيح من الجبال هل هو على حقيقته، كانت تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، أو أنه كناية عن وقوف الطير في السماء مع ذكر داود -عليه السلام-؟

الصحيح الذي عليه أهل العلم أنها كانت تسبح على الحقيقة، وليس هذا على الله بعزيز، الذي أنطق البشر ليسَ بعاجزٍ عن أن يُنطِق الطير والجبال سبحانه كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: على الحقيقة، ولكن القضية ماذا؟ ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وكما قالتِ النملة: ﴿يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾.

قال الله عز وجل عن داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، ذُكر أن داود -عليه السلام- كان يفتل الحديد ولا يحتاج إلى نار أو مطرقة، ألانَ الله له الحديد كما ألان لغيره العجين، ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ يعني: حِلَق مقدرة، ثم المسامير واجعلها متناسبة، ﴿اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ دروع، هكذا أمر الله داود -صلوات الله وسلامه عليه-.

وقال -عز وجل-: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ في هذه الآية ثلاثُ قراءات:

فإمَّا أنْ يكون الفاعلُ هو الله -سبحانه وتعالى- «لنُحصِنَكم»، أو داود «ليُحْصِنَكم»، أو اللبوس نفسه، «لتُحْصِنَكم»، وكلها قراءات ثابتة عن رسول الله ﷺ.

نبأ الخصم:

ذكر الله -تبارك وتعالى- قصةً حدثت لداود، وهي أشهر قصص داود -عليه السلام-: يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ الخطاب للنبي محمد ﷺ، ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ

ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَٱحْكُمْ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ ٱلصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾، هذه فتنةٌ وقعت لداود -صلوات الله وسلامه عليه-، ذُكر أن داود -عليه السلام- كان قد قسم الأيام إلى ثلاثة: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يعبد ربه -تبارك وتعالى-، ويوم يُسَيِّر به أمور الرعية.

فكان اليوم الذي يتفرغ فيه لعبادة ربه -تبارك وتعالى- لا يدخل عليه أحد، فقدر الله أن تسور عليه المحراب رجلان، فدخلا عليه فجأةً، ففَزِع منهما وخاف، وهذا الخوف الطبيعي، ولا يضر ولا يَعيب، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾.

قال: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، قالوا: لا تخفْ، خَصْمَان، بغى بعضنا على بعضٍ، قال بعض أهل العلم أنَّهم كانوا جَماعة وليس اثنين والله أعلم، ولكن ظاهر الأمر أنهما كانا اثنين فقط، ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَٱحْكُمْ بَيْنَنَا﴾، فالأول قال: إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة، أمَّا أنا فلي نعجةٌ واحدةٌ، فقال لي أخي أكفلنيها ماذا تفعل بواحدة، وعزّني في الخِطاب أي: غلبني في الكلام، لديه حجة، والآن أنا لستُ راضيًا، قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، هذا الأصل أنه إذا كانت خُلطة يصير فيها الطَّمَع.

التفسير الصحيح للفتنة:

والآية ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ عند أهل العلم تحتمل معنيين:

المعنى الأول: أنهما هما رجلان كظاهر الآية، أحدهما له تسع وتسعون نعجة، والآخر له نعجة واحدة، ودخلا على داود وسألاه، وأجابهما بما علم، أو بما ظهر من المسألة، والفتنة كانت في إجابته قبل سماعه للرأي الآخر، سمع الأول الذي قال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ

تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ ولم يقل للثاني: ما رأيك؟ لم يسمع من الطرف الآخر.

وهذا له جواب: وهو أن داود -صلوات الله وسلامه عليه- التفت إلى الثاني فسكتْ، فدل هذا على أنه مصدق لما قال الأول، فحكم بناءً على هذا، أو أن داود -صلوات الله وسلامه عليه- قال: إن كان كما تقول فقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وتكون الفتنة هنا أنَّ داود نجح في هذا، وخرَّ راكعًا وأناب إلى الله -سبحانه وتعالى-، فتكون مدحًا.

المعنى الثاني: أنهما ملَكان، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، ولذلك تسورا المحراب دون أن يعلم بهما، وهذان المَلَكان سألا داود اختبارًا هل يجيب قبل أن يسمع من الطرف الثاني أو ينتظر حتى يسمع، فتسرّع وأجاب قبل أن يسمع من الطرف الثاني، فاختفيا، فعلم داود أنهما أرادا اختباره وهذا ظاهر، وهذا الذي عليه أكثر أهل العلم؛ ولذلك استغفر وركع وأناب، أي: رجع وتاب، والله أعلم.

عبادة داود عليه السلام:

قال رسول الله ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأفضل الصيام عند الله صيام داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا»[1].

وقصة داود لم تنته؛ لأن لها تعلقات مع سليمان -صلوات الله وسلامه عليه -، فنُؤجِّل ما كان مع سليمان إلى قصة سليمان -صلوات الله وسلامه عليهما-.

الدروس والعبر المستفادة من قصة داود عليه السلام:

أولًا: إن قهر الله للجبابرة قد يجعله في أضعف خلقه، كما هزم جالوت وجنوده العماليق بثلاثمئة وبضعة عشر، وجعل داود الذي لم يجاوز السابعة عشرة من عمره هو الذي يقتل جالوت.

---

١ أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

ثانيًا: أن الضعيف لا ييأس من رحمة الله، ولا ييأس من النجاح أبدًا، بل قد ينصره الله -جل وعلا- كما فعل لداود مع جالوت.

ثالثًا: انتصار داود لم يُغَيِّرْه، بل كان عابدًا لله -تبارك وتعالى-، عارفًا لفضل الله -جل وعلا- عليه.

رابعًا: طاعة الله -سبحانه وتعالى- وشكره يوجب المزيد، ولما زاد داود من طاعته لله -جل وعلا- زاده الله من فضله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

خامسًا: الابتلاء سنة الله في خلقه، للأنبياء وغير الأنبياء، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

سادسًا: احتمال الأنبياء للأذى كما وقع لشمويل -صلوات الله وسلامه عليه- من بني إسرائيل لما قالوا له: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

سابعًا: مكانة أصحاب محمد ﷺ مقارنة مع بني إسرائيل.

ثامنًا: إمكان اجتماع النبوة والمُلْك في شخص واحد كما وقع هذا لداود -عليه السلام-.

تاسعًا: أن نعلم أنَّ الله -سبحانه وتعالى- على كل شيء قدير.

قصة سليمان عليه السلام

سليمان عليه السلام

ذُكِر نبي الله سليمان في القرآن سبع عشرة مرة، وقصصه كثيرة وتحتاج إلى وقفات:

أولًا: قصته مع ملكة سبأ.

ثانيًا: حاله مع خيله الصافنات.

ثالثًا: فتنته.

رابعًا: بيان ما وهبه الله -تبارك وتعالى- من المُلْك.

خامسًا: ما اتُّهِمَ به من الكفر.

سادسًا: بعض أحكامه.

سابعًا: وفاته.

قال الله -تبارك وتعالى- عن نبيه سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، الوارث هو نبي الله سليمان، والموروث هو أبوه نبي الله داود، وهذا الميراث ليس ميراث مال، وإنما هو ميراث الحكمة، ميراث النبوة، ميراث العلم، بدليل أنه قد عُلم من كتب السير أن داود -عليه الصلاة والسلام- كان له من الأولاد كثير، حتى إنه قيل: له تسعة عشر ولدًا، فكيف يكون الوارث سليمان وحده، ثم كذلك قد نصَّ النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- على أن الأنبياء لا يورثون فقال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»[1]، وقال: «إن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا»[2]، ثم لو كان الميراث المذكور في السورة من القرآن هو ميراث المال لكان ذكره دون فائدة؛ لأنه معلوم من الضرورة أن الولد يرث أباه، وإنما أراد ميراثًا آخر، ألا وهو ميراث النبوة، والعلم، والحكمة.

من فضائل سليمان عليه السلام:

امتاز نبي الله سليمان بالفطنة والحكمة في معالجة الأمور، وكذلك بالعدل بين الرعية، وقد ذكر الله -تبارك وتعالى- قصته لما مَرَّ على وادي النمل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ

---

١ أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة.

٢ أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه في (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وهو في "صحيح الجامع" (٦٢٩٧).

نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهذا كلام بين النمل تفهمه النمل، ووهب الله -تبارك وتعالى- نبيه سليمان موهبة ألا وهي أنه يفهم منطق الطير، كما قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

قالت نملة تخاطب النمل: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: خشيةَ أنْ يحطمكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، ثم اعتذرت له، وقالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، لا يقصدون إيذاءكم؛ لأنه ليس من هَدْيِ الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- أنْ يتعرضوا إلى إيذاءِ أحدٍ، بل جاؤوا مشاعل نور، وجاؤوا بالخير العَميم، فكيفَ يكونُ منهم هذا الإيذاء، فاعتذرتْ له تلكَ النَّملة، سَمِع وفَهِم -صلوات الله وسلامه عليه- كلامها، فتبسَّم ضاحكًا من قولها، ثمَّ شكر الله -جل وعلا- على ما وهبه من هذه النعمة، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾، ولم ينسَ كذلك ما أنعم الله به على والده بالنبوة، فقال: ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة إحدى قوائمها» -على ظهرها ورافعة إحدى قوائمها- وفي رواية: «تستسقي، تدعو الله أن يسقي الأرض، فقال: ارجعوا، فقد كُفيتم بدعاء هذه النملة»، وفي رواية: «ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»[1]، وجاء عن الزهري مرسلًا أنَّ هذا النبي هو سليمان -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا أخرجه ابن عساكر في «تاريخه».

قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وهذا يدل على أنه ذا رِعايةٍ وعنايةٍ بجيشه -عليه السلام-، ومن حَزْمِهِ وحُسنِ نِظامِهِ تفقّد جُنده، ومن هؤلاء الجند: الطير، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ وَٱلطَّيْرِ﴾، كل هؤلاء من جنود سليمان -صلوات الله وسلامه عليه-، كيف يغيب الهدهد دون أن يستأذن؛ ولذلك رتب عليه العقوبة، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي

---

١ أخرجه الطحاوي في "مشكل الاثار" (٧٣٢)، وضعفه الشيخ الألباني في "إرواء الغليل" (١٣٧/٣).

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، وهذا من عدله -صلوات الله وسلامه عليه-، وهو أنه إن كان له عذر؛ فإنه يعذر بهذا العذر الذي يقدمه.

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مَنْ الذي مكث غير بعيد؟ **يحتمل معنيين:**

المعنى الأول: أن الذي مكث غير بعيد هو سليمان -عليه السلام-، حتى جاءه الهدهد بالخبر.

المعنى الثاني: أن الذي مكث غير بعيد هو الهدهد، فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.

وهذا يبين أن هذه الطيور تعلم علم اليقين أن الذي لا يغيب عنه شيء هو الله -سبحانه وتعالى-، وأمَّا غير الله -جل وعلا- من مخلوقاته فإنه لا يعلم الغيب، ولو كان نبيًا كريمًا كسليمان الذي ملك الأرض، ولم ينكر عليه نبي الله سليمان هذه المقالة؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لم يحطْ بكل شيء، ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ سبأ مدينة معروفة في اليمن، وسليمان كان في بيت المقدس، هذا هو السبب الذي تغيب لأجله، فأراد -أولًا- أن يبين أنهم ليسوا أناسًا عاديين، وليست مملكة صغيرة حتى يظهر لنبي الله سليمان عظم الجرم، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، هدهد وأنكر عليهم غاية الإنكار أنهم عبدوا غير الله، فدل هذا على أن هذه الطيور وهذه الحيوانات مُوَحّدة لله -تبارك وتعالى-، بل ومسبحة لله -جل وعلا-: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

وهذه الحيوانات تحبّ المؤمنين، وتبغض الكافرين المكذّبين للمُرسلين.

جاء هذا الهدهد بهذا الخبر، وهو يَحتَمِلُ الصِّدق والكذب، ولذلك لم يَقُلْ له: كذَبتَ، ولم يقل له: صدَقتَ؛ لأنه غيب بالنسبة لنبي الله سليمان، ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾، أصدقت فيما تقول، أم تكذب لتنجو من العذاب والذبح، ﴿ٱذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ * فَٱنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، لم يبين لنا ماذا كتب، ولكن سيتبين لنا عندما تقرأه ملكة سبأ، ذهب الهدهد بالكتاب، ألقاه إليهم، تعجبوا!! طير يأتي بكتاب!!

أخذتِ الكتابَ الملكةُ، فقرأته ثم جمعت كبار القوم وهم الملأ، ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، وقالت عن الكتاب: إنه كريم؛ لأنها تعرف أن سليمان كان من أكبر ملوك الأرض ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾، فكأن سليمان كان معروفاً عندهم ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دل على أنه يستحب للإنسان إذا قدم أو أراد أن يكتب كتابًا أن يقدم بين يديه هذه البسملة.

وذكر فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ عبارة مختصرة وجيزة كاملة البيان، وخير الكلام: ما قلَّ ودلَّ، ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، وهذا يدل على كمال عقلها ورجحانه، ماذا ترون، ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، إن شئت حربًا فنحن أولوا قوة، وأولوا بأس شديد، وإن شئت سِلْمًا، فالأمر إليك، فانظري ماذا تأمرين، قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ سبي، وقتل، وسجن، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أي: هذا هو دَيْدن الملوك وهذه عادتهم؛ لأنها لا تعرف إلا الملوك الذين من هذا الصنف، فأرادت أن تجرب هذا الملك، وما كانت تسمع عنه من عدله -صلوات الله وسلامه عليه-؛ ولذلك وصفتْ كتابه بأنه: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، فدعوا الحرب، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، قال أهل العلم: أرادت بهذه الهدية أن تعرف أهو من ملوك الدنيا الذين يريدون جمع المال، والخدم، والحشم، وما شابه ذلك، أو أن الأمر غير ذلك؛ لأنه إنما قال لهم: ائتوني مسلمين، فهو دعاهم إلى الله -تبارك وتعالى-.

جاءت الرسل إلى سليمان بالهدية، فلما جاء سليمانَ -أي: الرسولُ الذي أرسلته ملكة سبأ- غضب سليمان، أنا ما طلبت هدايا، بل طلبتُ ألا تعلوا علي، وأن تأتوني مسلمين، ولذلك قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾، ولم يقل: ما عندي خير مما عندكم، وإنما قال ما أتاني الله خير مما آتاكم، فالذي عندكم من الله، والذي عندي من الله، والله أعطاني خيرًا مما أعطاكم، فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، ارجع إليهم أي: بالهدية، وارجع بهديتهم، فأبلغهم ما كان من سليمان، وما قال، فعرفت ملكة سبأ أنه نبي، وأنه ليس ممن يريد الهدايا.

والتفتَ سليمان بعد أن أرجع الرسول بهديته، قال للذين حوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مَنْ يستطيع أن يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال أهل العلم: وسليمان إنما عرف أنهم سيأتونه مسلمين، لما رأى من رجحان عقلها أنها أرسلت الهدية، ولم تعلن حربًا عليه -صلوات الله وسلامه عليه-، وكذلك رأى من رجحان عقل هذا الرسول الذي جاءه، وسمع منه، فظن أنهم سيأتونه مسلمين، وهذا مما غلب على ظنه -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال لمن حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ إذ إنه قد بلغني أنهم سيخرجون وسيأتون مسلمين، أو أنهم خرجوا، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ ٱلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قالوا: العِفْريت هو شديد القوى، يقال له: عفريت، والجنُّ فيهم المسلمون، وفيهم الكافرون، وكلهم مُسَخَّرون لسليمان، مؤمنهم وكافرهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ وأما كفار الجن فقال فيهم: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾.

قال هذا العفريت -والأكثر على أنه كافر ولكنه خادم، رغمًا عنه-: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ أي: العرش ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قالوا: مقامه من بعد الشروق إلى الزوال، وقت الضحى، يجلس ويسمع من الناس مشاكلهم، ويقضي بينهم، وينظر في حاجاتهم، خلال هذه الساعات القصيرة القليلة، وهم في اليمن وأنت في الشام، ثم حتى لا يظن أحد أن هذا مجرد كلام قال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قالوا: هو أبعد ما يصل إليه النظر، إذا بلغه يكون العرش عنده، أو عندما يرمش، ولا شك أن هذا شيء عجيب، ولذلك ما قال: اذهب وائت به، وإنما رتب عليه الحصول: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ ولكن مَنْ هذا الذي قال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؟

لأهل العلم أربعة أقوال في هذا القائل:

القولُ الأوَّل: إن القائل رجل صالح من بني آدم.

القولُ الثَّاني: إن القائل هو جني مؤمن.

القولُ الثَّالث: إن القائل جبريل -عليه السلام- أو ملك من الملائكة آخر.

القولُ الرَّابع: إن القائل سليمان، وأراد أن يختبر قوتهم وقدرتهم، حتى يظهر لهم فضل الله عليه.

وكل هذه الأقوال محتملة، وليس هناك نص قاطع من عند الله -جل وعلا- أو من عند الرسول ﷺ يحسم هذه المسألة، ولا يهم، المهم أنه رآه مستقرًا عنده خلال لحظات -صلوات الله وسلامه عليه-.

سليمان عليه السلام يُري آية:

قال سليمان عليه السلام: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ نكِّروا لها عرشها، زادوا ونقصوا، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ نظرت إليه وإذا هو عرشها، ثم توقفت لأن فيه تغييرات ولذلك أتت بعبارة محتملة، وهذا أيضًا دليل على فطنتها ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، لم تقل ليس هو من شدة الشبه، ولم تقل هو للتغير الذي حدث فيه ثم للبعد؛ فالمسافة بعيدة هي في سبأ والآن جاءت إلى الشام.

سكت سليمان -عليه السلام- ثم قال لها: ادخلي الصرح ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾، الصرح: المجلس الكبير العظيم لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، من القائل؟ إما أن يكون القائل سليمان -عليه السلام-، وإما أن يكون القائل من وُكِّل بها لأن هؤلاء الملوك يوكل لهم من يقوم بشؤونهم، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ حسبته ماءً، ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ ليس ماءً، ولكنه مُمَرَّدٌ بالقَوارير، قِيل إنه جاء إلى البحيرة وعمل فوق البحيرة قوارير، يعني الأرضية شفافة، يُرىٰ ما تحتها، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

سليمان عليه السلام والصافنات الجياد:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ يخبر الله -تبارك وتعالى-، عن قصة حدثت لنبي الله سليمان -عليه الصلاة والسلام-، قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ عرض على سليمان وهو الملك، والعشي من زوال الشمس إلى غروبها، يقال عن صلاة الظهر وصلاة العصر: صلاتا العشي،

﴿ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الصافن من الجياد هي التي تقف على ثلاثةِ أرجل والرجل الرابعة تقف على طرف حافِرها، وقفة يُحِبُّها أهلُ الخَيل، وقفة فيها نوع من التكبُّر، فيُخبر الله -تبارك وتعالى- عن خيل سليمان أنها كانت صافنات جياد، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ الخير اسم من أسماء الخيل، ولذلك قال النبي ﷺ: «في نواصيها الخير»[1] ولما جاء زيد الخيل للنبي ﷺ قال: «أنت زيد الخير»[2]، وقيل لها: الخير؛ لأنها تأتي به، سماها بما تأتي به، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَنۡ ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾.

وذكر الحافظ ابن كثير وغيره من أهل العلم قالوا: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ الخيل ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ الخيل ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ أي: الشمس ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: الخيل ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ عرقبها وقتلها، وما الدليل على هذا القول؟ قالوا:

أولًا: قوله -جل وعلا-: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ ذِكْر العشي له معنى، والعشي هو وقت الزوال إلى الغروب، فلما ذكر العشي ثم توارت بالحجاب إذًا هي الشمس؛ لارتباط الشمس بالعشي، ثم كذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَنۡ ذِكۡرِ رَبِّي﴾، «عن» على ظاهرها، والأصل أنها عن ذكر ربي وليس مِنْ ذكر ربي، فهي شغلته عن ذكر ربه -تبارك وتعالى-، قالوا: ويحتمل أنها صلاة العصر ويحتمل أنه ورد كان يصليه، وليس شرطًا أن يكون ترك واجبًا، لكن ممكن أن يكون ترك أمرًا مستحبًا، والأصل أن تؤخذ الآية على ظاهرها ﴿عَنۡ ذِكۡرِ رَبِّي﴾ ولماذا قتلها إذًا؟ قالوا: قتلها، وأمر الناس أن يأكلوها، ولماذا فعل ذلك؟ قالوا لئلا تشغله مرة ثانية، ودليل ذلك أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه؛ ولذلك جاءت الآية التي بعدها أن الله عوضه بالريح، ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ فلما ترك الخيل لله -جل وعلا- عوضه الله بالريح، والريح أقوى من الخيل وأسرع ولا تحتاج مؤونة ولا كلفة ولا عناية ولا شيء، فعوضه الله خيرًا من الخيل لما تركها لله -جل وعلا-.

فالقصد أن كلا الأمرين محتمل، يحتمل أنه أراد حتى توارت بالحجاب: الشمس، ويحتمل حتى توارت بالحجاب الخيل والعلم عند الله -جل وعلا-.

---

١ أخرجه البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٨٧١) من حديث عبدالله بن عمرو.

٢ أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (٤١٥)، وضعفه الشيخ الألباني.

الكلام على فتنة سليمان عليه السلام:

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وهذا على سنة الله -جل وعلا- كما قال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ إذًا الفتنة سنة جارية.

سليمان عليه السلام يريد الدنيا لتعينه على آخرته:

قال سليمان بعد ذلك -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ طلب ملكًا لا يكون لأحد من بعده.

وقد يسأل سائلٌ: كيف يطلب نبي الله الدنيا، والمعلوم أن أنبياء الله -عليهم السلام- أزهدُ الناس في الدنيا؟

فالجواب: أنه ما أراد الدنيا لأجل الدنيا، وإنما أراد الدنيا؛ ليتقرب بها إلى الله -تبارك وتعالى-، وهذا حق.

ولكن كما مر بنا في الحديث السابق أنه قال: «لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن مجاهدًا يقاتل في سبيل الله تبارك وتعالى»، إذًا إنما طلب مُلْكَ الدنيا -صلوات الله وسلامه عليه-؛ ليقيم الحق، ليقيم الدين، لينشر العدل، كما قال أخوه -عليه السلام-: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فهذا جائز لا شبهة فيه.

واستجاب الله -تبارك وتعالى- دعاء نبيه سليمان، وما أنكر عليه هذا الدعاء؛ لأنه الله -سبحانه وتعالى-، عرف لماذا طلب سليمان الملك فقال -جل وعلا-: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، كانت الريح تتجه حيث أراد نبي الله سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- من بلاد الشام المباركة، قال قتادة: «تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهر في يوم واحد»، تغدو: أي فترة الغدو في الفجر مسيرة شهر، تقضيها في هذه الفترة القصيرة، كذلك مسيرة شهر في الرواح وهو عودة الطيور

إلى أوكارها بعد غدوها كما قال النبي ﷺ: «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[1].

وذكر الله -تبارك وتعالى- أنه مما أعطى سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ وهي عين من نحاس أسالها الله له، وذُكر أنها كانت في اليمن، أسيلت له ثلاثة أيام، ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، الجن خدم بين يدي سليمان -صلوات الله وسلامه عليه-، على مختلف أشكالهم مؤمن الجن وكافر الجن، كلهم يعملون تحت يديه، إما أن يعمل باختياره وإما أن يُرغم على العمل وإما أن يسجن، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ الجفان هي: الصحون الكبيرة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: كالحياض، والحياض هي أماكن شرب الإبل، ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ القدر الذي يعمل فيه الطعام، راسيات: أي ثابتات، قدور كبيرة ثابتة، وقال الله -جل وعلا- عن الجن بل عن شياطين الجن وهم الكفرة من الجن: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بعض الجن من الشياطين بنَّاؤون يبنون لسليمان، وآخرون غواصون يغوصون في البحر يخرجون له درر البحر، قال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ وهم الذين يعصون أمره يكبلهم ويقيدهم في الأصفاد.

ما اتهم به سليمان من الكفر:

ذكر أهل التفسير أن نبي الله سليمان كان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر، وذكروا أنه كان يدفنه تحت كرسيه -صلوات الله وسلامه عليه-، وكانت الشياطين تعجز عن أن تصل إلى هذا السحر، فلما مات -صلوات الله وسلامه عليه- قالت الشياطين: إنَّ سليمان كان يسخِّر الريح والشياطين بالسحر الذي يدفنه تحت كرسيه، يعني: هو الذي كان يعمل السحر، وكان الناس على قولين، بين متهم لنبي الله سليمان وبين مبرء له، أيصدقون ما تقوله الشياطين عن نبي الله سليمان أنه فعلًا كان يستخدم السحر الذي وجدوه تحت كرسيه أو أنهم يكذبون عليه.

استمر هذا الاتهام لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، هل كفر -صلوات الله وسلامه عليه-

---

١ أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو في "صحيح الجامع" (٥٢٥٤).

أم أنه بريء؟ استمر هذا الأمر حتى برأه الله -جل وعلا- على لسان محمد ﷺ حينما أنزل الله قوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ هذا الذي يسمى بالتولة، وقال النبي ﷺ: «التولة شرك»[1]، والتولة هو السحر الذي يصنع للزوجين إما لتقريب القلوب وإما لتفريقها، يقول الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: في دينهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فبرَّأَ الله عز وجل سليمان -عليه السلام- مما اتُهم به من السحر، فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ﴾ الذين اتهموه وكذبوا على الناس هم الذين كفروا؛ لأنهم هم الذين كانوا يعلمون الناس السحر.

بصيرة سليمان عليه السلام في الحكم:

الحكم الأول: في قول الله - جل وعلا -: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قضية طرحت على نبي الله داود -عليه السلام- أن رجلين جاءا لنبي الله داود -عليه السلام-، فقال أحدهما له: إن غنم هذا دخلت إلى حقلي، وأفسدت زرعي، قال: ﴿نَفَشَتْ﴾ ولم يقل عاثت فسادًا، ولم يقل دخلت، وإنما قال: ﴿نَفَشَتْ﴾، هذا معناه أنها دخلت ليلًا، والإنسان مسؤول عن إبله وغنمه ودوابه ليلًا، وغير مسؤول عنها نهارًا، ففي النهار يجب على صاحب المزرعة أن يحمي مزرعته؛ لأن هذه دواب وبهائم يتركها صاحبها ترعى، وعلى صاحب الدواب أن يمنعها من الخروج ليلًا، فهذا تركها تخرج ليلًا، فأفسدت حقل صاحبه، فقال له نبي الله داود: ما تقول؟ قال: هو كما قال، فسأل نبي الله داود عن قيمة هذا الزرع، فذكر له مبلغ، ولنفرض أنه أربعون ألفًا، فنظر في الغنم كم قيمتها؟ فإذا قيمة الغنم كقيمة ما أفسدت، يعني كانت قيمتها أربعين ألفًا، فقال: خذ غنمه مكان ما أفسد من الزرع، هذا حكم داود -عليه السلام-، وهو صواب، فلما حكم داود -عليه السلام- سكت الرجلان وقَبِلا، وكان مَلِكًا قاضيًا.

---

١ أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وهو في "صحيح الجامع" (١٦٣٢).

وهنا تدخَّل سليمان، وقال: يا أبي تسمح لي أن أحكم؟ قال: نعم احكم، قال: يأخذ صاحب المزرعة غنم هذا الرجل فيستفيد منها في الفترة التي يقوم صاحب الغنم بإصلاح المزرعة كما كانت، يعني: صاحب الغنم يصلح المزرعة، وخلال فترة إصلاحه المزرعة حتى لا يتباطأ في إصلاحها ولا يتماهل يأخذ صاحب المزرعة الغنم فيستفيد من لبنها خلال هذه الفترة، ثم بعد ذلك يعيد له المزرعة كما كانت ويعيد له الغنم كما كانت، فيتحمل هذا ما أفسدت الغنم في العمل على إصلاح هذه المزرعة، ويستفيد صاحب المزرعة الفترة التي أفسدت فيه مزرعته يستفيد من لبن الأغنام، ففرح داود بهذا الحكم، فحكم داود صحيح وحكم سليمان أصح، لذلك قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: فهمنا سليمان الحكم الأصح في هذه المسألة، ثم حتى لا يعيب أحد على داود -عليه السلام- حكمه؛ قال -جل وعلا-: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

الحكم الثاني: أخبر النبي ﷺ أنهما كانتا امرأتان معهما ابناهما، هذه لها ابن وهذه لها ابن، فجاء الذئب فأكل أحدهما، فاختصمتا كل واحدة تقول: الذئب أكل ابن الأخرى، فاختصمتا عند داود -صلوات الله وسلامه عليه-، فصار يسألهما، سأل هذه وسأل هذه، ثم بعد ذلك تبين له من خلال ما سمع -صلوات الله وسلامه عليه- أن الابن الذي أخذه الذئب هو ابن الصغرى وقضى بالابن للكبرى، وكان سليمان حاضرًا فقال: يا أبي أحكم بينهما؟ قال: نعم احكم بينهما، وكان يرى فيه النجابة والعلم والفهم، فأمر بالسكين فأُوتي بها فقال: سأقطع الولد نصفين لأنه يحتمل أن الذئب أخذ ابن الكبرى، ويحتمل أنه أخذ ابن الصغرى، فإن أعطيناه الكبرى أو أعطيناه الصغرى ظلمنا الأخرى إذا كان خطأ، وليس هناك دليل قاطع يُحكَم من خلاله أهو للكبرى أو للصغرى، فقال: فقالت الكبيرة: نعم لا مانع اقطع، أما الصغرى فقالت: لا تفعل هو ابنها، فعرف سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- أن الابن للصغرى؛ وذلك أن شفقة الأم ظهرت، ولو كان ابن الكبرى لم تقل اقطعه[1].

١ أخرجه النسائي في "السنن" (٥٣٠٩).

وفاة سليمان عليه السلام:

قال الله -جل وعلا-: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ قدَّر الله -تبارك وتعالى- أنه مات وهو مستند على عصاه، ولا يعلم أحد أنه ميت، فاستمروا في العمل حتى جاءت دابة الأرض أي: الأرضة فصارت تأكل العصا من أسفل سقط نبي الله سليمان وعرفوا أنه كان قد مات، وهذا فيه أن الله أراد أن يبين للناس أن دعوى الجن أنهم يعلمون الغيب كذب وزور، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ إذ لو كانوا علموا أن سليمان قد مات كانوا خرجوا وتركوا العمل، كم المدة التي بقي فيها سليمان على كرسيه مستندًا على عصاه؟ لا تُعلم هذه المدة، المهم أنها فترة زمنية كان فيها سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- ميتًا، والجن تعمل تظنه حيًّا، هذا الذي يهمنا في هذا الأمر وهو أن الله فضحهم في دعواهم أنهم يعلمون الغيب.

الدروس والعبر المستفادة من قصة سليمان عليه السلام:

أولًا: كمال اعتناء الله بأنبيائه ورسله، من التربية والرعاية.

ثانيًا: ما مَنَّ الله به على سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- من كمال الدين، وكمال الخلق، والفطنة، والفهم.

ثالثًا: أن سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- قدم محبة الله على كل شيء، وهذا على القول بأنه قتل الصافنات الجياد، ذبحها تقربًا لله -جل وعلا-؛ لأنها ألهته عن طاعته.

رابعًا: أن كل ما شغل عن الطاعة فعلى الإنسان أن يفارقه، كما فعل نبي الله سليمان -صلوات الله وسلامه عليه-.

خامسًا: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فلما ترك نبي الله سليمان الخيل عوضه الله الريح.

سادسًا: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان، وكل من ادعى أنه يسخر الشياطين وأنها تخدمه رغمًا عنها كذاب؛ لأن سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾، فأي إنسان يأتيك ويدعي أنه تخدمه الشياطين؛ فاعلم أنه كذاب فهي إن خدمته فباختيارها لا بتسخيره لها، وإنما تخدمه لأنه يخدمها فيكون هناك تبادل منافع أو مضار؛ لأنها لا تخدمه إلا إذا كفر بالله -جل وعلا-، أما أن تسخر له الشياطين وأنها ترغم على خدمته فهذا باطل.

سابعًا: أن الله -تبارك وتعالى- أعطى سليمان مُلْكًا عظيمًا ومع ذلك ما غره ذلك المُلْك بل كان عبدًا تقيًّا لله -جل وعلا-.

ثامنًا: أن الإنسان لا يستعجل في الأمور ويستشير من معه كما فعلت ملكة سبأ لما استشارت قومها وقالت لهم: أشيروا عليّ.

قصة أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام

حديثنا في هذا المقام عن قُدوةِ الصَّابرين، نبيّ الله أيوب صلوات الله وسلامه عليه الذي صار مضرَب المثل في الصَّبر، حتى إذا بَلَغ الصَّبر بالإنسان مَبلغَه؛ قال: يا صبر أيوب، يعني اللهم أعطني صبر أيوب.

وأيوب عليه السلام من ذرية إبراهيم على الصحيح، وعلى المشهور هو من ذرية العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

قال الله -جل وعلا- عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾.

وردَ ذكره في القرآن أربع مرات، والصحيح المشهور أنه نبي، قال الله -جل وعلا-: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ﴾ ولم يذكر الله تبارك وتعالى رسالته، ولا بُعث إلى مَنْ، ولا ذكر دعوته لقومه.

ابتلاء الله عز وجل لأيوب عليه السلام:

كان في أرض حوران في الشام، ويقترن اسمه بالصبر؛ لأنه كان أشدَّ الأنبياء بلاءً في جسدِه صلوات الله وسلامه عليه، ذُكِر عن أيوب أنَّه كان كثيرَ المال من جميع أصنافه، من أراضٍ، ومزارعٍ، وأنعامٍ، وذهبٍ، وفِضةٍ، وغيرها.

وله كذلك أولادٌ كُثُر، وأهلون كُثُر، فسَلَبه الله -جل وعلا- جميعَ ذلك، هذا هو **الأمر الأول**.

الأمر الثاني: أنَّه ابتُلي في جسده بأنواع البلاء، حتَّى قِيل: إنه لمْ يبقَ من جسده ممَّا لم يُصب إلا لسانه، وقلبه.

الأمر الثالث: طال بلاؤه جدًا.

الأمر الرابع: مَلَّ الناس زيارته لطول البلاء، وقيل: لخشية العدوى منه، فهجره جميع الناس، ما بقي معه إلا امرأته، وهذه لا شك مصائب يصيب الله بها العباد، ولكن هذه

المصائب في نظر العاقل المتدبِّر هي نِعمٌ لمن صبر واحتسب؛ لأنها أجر يقدمه الإنسان لنفسه يوم القيامة، وهي كالدواء المُرّ يشربه المريض، ولكن في النهاية عاقبته إلى خير.

صبر أيوب عليه السلام:

ومع هذا الابتلاء ظلَّ أيوب عليه السلام صابرًا محتسبًا للأجر عند الله تبارك وتعالى، ويكثر من ذكر الله -جل وعلا- ليله ونهاره، لم يفتُرْ لسانه ولا قلبه عن ذكر الله -جل وعلا-، وهو كما قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شُدِّدَ عليه في البلاء»[1]، إذًا الابتلاءات هذه لا تدل على أنَّ الله لا يُحب هذا الإنسان، بل لعلَّ العكس هو الصحيح، وذلك أنه جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يُصب منه»[2]؛ أي: يبتليه سبحانه وتعالى، كالذَّهب يُعرَض على النار، فتنقي النار هذا الذهب من الشوائب حتى يصير بعد ذلك خالصًا من هذه الشوائب التي كانت عالقة فيه.

وظلَّت امرأة أيوب عليه السلام صابرةً محتسبةً معه، وقامت بحقِّ زوجها خيرَ قيام مع طول المدة، وشِدَّة البلاء إلا أنَّ أيوب عليه السلام لم يسأل ربَّه كشفَ ذلك الضرّ، وهذا جائز، فيجوز للإنسان أن يصبر ويحتسب الأجر، ويجوز له أن يدعو الله -جل وعلا- فيُذهب عنه ما يجد، وذُكر أنه قال: عشتُ سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل علي أن أصبر سبعين سنة؟

أيوب عليه السلام يرفع يديه بالدعاء بعد صبر طويل:

ضَعُفَ حال امرأته، وقلَّ كسب يدها، وما كانت تجِدْ من يُنفِق عليها، كانت تعمل لتُطعِم نفسها وتأتي لتُطعِم أيوب صلوات الله وسلامه عليه، حتى ملَّها الناس، بل خافوا منها أن تعديهم لكثرة ترددها على هذا المريض أيوب صلوات الله وسلامه عليه، فلم تجد بُدًّا من

---

١ أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وهو في "صحيح الجامع" (٩٩٢).
٢ أخرجه البخاري (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن تبيع شعرها، وقالوا: كان لها شعرٌ حسنٌ فباعتْ ضفيرتيها لبعض نساء الأشراف في تلك البلاد، وأخذت المال واشترتْ به طعامًا لها ولزوجها.

جاءت أيوب ومعها طعام حَسن لا كما كانت تأتيه في كل يوم، فشك في أمرِها وحَلَف لا يأكل من هذا الطعام حتى تخبره من أين أتت به، فكشفت عن رأسها وأرتْه أنها باعتْ ضَفيرتيها، فلمَّا رآها؛ رفع رأسه إلى السماء، وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دعا الله -جل وعلا-، قلنا: لم يصبر، لا أنه لم يصبر لشدَّة الألم، ولكن لِمَا رأى من حالِ زوجته، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: في أهلي، وفي هذا أنَّ الإنسان إذا ضاقتْ به الدنيا أنه لا ملجأ ولا منجا إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فلجأ هذا العبد التقي إلى ربه سبحانه وتعالى، وكما قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، ولو طبَّقنا هذه الآية لوجدناها على أيوب مطابقة تمامًا.

وقيل: إنه سبب آخر، قام رجلان قريبان من أيوب، كانا يترددان عليه، فقال أحدهما: لو كان الله علم من أيوب خيرًا؛ ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع مثله، وخرَّ لله ساجدًا، وقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه ما يجد، جاء في هذا حديث مرفوع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة..، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان له ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: نعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه ربُّه فيكشف عنه، فلما دخلا على أيوب صلوات الله وسلامه عليه لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، قال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله -هذا يحلف وهذا يحلف- فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق»[1].

---

١ أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/٢١١)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٧).

قال النبي ﷺ: «وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها؛ أمسكتْ امرأته بيده، حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، وأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾» أي: اضرب برجلك الأرض، «فضرب برجله الأرض، فنبعت عين، قال: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر، وأقبل عليها، وقد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك؛ ما رأيت رجلًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا، قال: فإني أنا هو، أنا نبي الله المبتلى».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «رفع هذا الحديث غريب جدًا».

والأشبه أن يكون موقوفًا، يعني من روايات بني إسرائيل، وليس من قول النبي ﷺ.

هل يعارض الدعاء الصبر؟

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وقال الله -جل وعلا-: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾.

هل هذا يتنافى مع قول الله -جل وعلا- في شأن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ هل يتنافى هذا مع الصبر؟

والجواب: هو صابر مع ذكر هذه الآيات، لا تعارض أبدًا؛ لأنه لا تعارض بين الدعاء والصبر، والدعاء لا ينافي الصبر، والذي ينافي الصبر الشكوى إلى الخلق، أما الذي يشتكي إلى الله، فهذا هو الصابر المُحتسِب.

وأيوب لم يشتكِ إلى الخلق، بل لجأ إلى الله سبحانه وتعالى، وأيوب كان داعيًا، ولم يكن شاكيًا، بدليل أنه لما قال هذا الكلام؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، والاستجابة لا تكون إلا للدعاء، فهو دعا، ولم يشتكِ صلوات الله وسلامه عليه، بل إنه لما جمع في دعائه بين حقيقة التوحيد وإظهار الحاجة والفاقة إلى الله -جل وعلا-، بل والتوسل إليه بأسمائه وصفاته؛ استجاب الله سبحانه وتعالى له.

هل الشيطان يمس بالشر؟

وهنا قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فهل الشيطان يمس بالشر أم أن الأمر كله بيد الله -جل وعلا-؟

والجواب: إن الأمر كله بيد الله -جل وعلا-، خلق الخير وخلق الشر، بل رأس الشر الشيطان، والذي خلقه هو الله سبحانه وتعالى، هو النافع الضار سبحانه وتعالى، ولكن هذا الكلام من أيوب صلوات الله وسلامه عليه جاء من باب الأدب مع الله -جل وعلا - كما جاء في دعاء النبي ﷺ: «والخير كله في يديك والشر ليس إليك»[1]؛ أي: لا يُنسب إليه سبحانه وتعالى.

قال الله -جل وعلا- عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، ولم يقل: وإذا أمرضني مع أن الذي أمرضه هو الله، والذي شفاه هو الله، ولكنه أدبًا مع الله -جل وعلا- قال: ﴿مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

استجابة الله عز وجل لأيوب عليه السلام:

كان يخرج لحاجته مع امرأته وأنه في يوم من الأيام أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ اضرب برجلك، ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ الذي نبع من الأرض هو مغتسل بارد، وهو أيضًا شراب، نبعتْ من الأرض عين، فلما اغتسل منها برأ ظاهره، ولما شرب منها برأ باطنه، فهما عينان، عين اغتسل منها وعين شرب منها صلوات الله وسلامه عليه.

بعد أن شافاه الله -جل وعلا - قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ **في معناها ثلاثة أقوال:**

القول الأول: رد الله عليه ماله وولده الذين ماتوا، أحياهم الله له مرة ثانية، ثم كثرهم.

---

١ أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

القول الثاني: رد لزوجته شبابها.

القول الثالث: آجره الله فيمن بقي من أهله، وجمع بينه وبينهم في الآخرة.

قال الله -جل وعلا-: ﴿مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾، وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ﴾، فالعابدون هم أولو الألباب؛ أي: تذكرة لمن ابتُلِي فصَبَرْ؛ فإنَّ له مثل ما لأيوب عليه السلام.

واحفظوا أيمانكم:

قال الله له بعد أن شفاه ورد عليه أهله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِبْ بِهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ذُكِر أن أيوب حَلَف ليضربنّ امرأته مئة سوط؛ لأنها باعتْ ضفائرها، أو أنها تأخرتْ عليه يومًا، أو جاءها الشيطان، فقال لها: إن شفيتُ لك أيوب هل تقولين إني أنا شفيته؟ فقالت: أسأل أيوب، فسألته، فحلف ليضربنها، يعني كيف تقبلين مثل هذا الكلام، والشافي هو الله -جل وعلا-، وأيًا كان فالله أعلم بالسبب الذي من أجله حلف أيوب صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه كلها روايات بني إسرائيل، فلا تُصدَّق ولا تُكذَّب، ولكن الذي جاء في كتاب الله -جل وعلا- قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِبْ بِهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، الضغث قيل: هي أعواد النخيل يعني الجريد أو السعف الجاف.

وقيل: الضغث هو الحشيش الذي يَبُس، جمع مئة عود، فضرب بها زوجته ضربة واحدة، بدل أن يضربها مئة سوط، حتى لا يحنث في يمينه، وهو كما قال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

الدروس والعبر المستفادة من قصة أيوب عليه السلام:

أولًا: قصة أيوب هي قصة الإيمان الكامل، والصبر الجميل.

ثانيًا: كفارة اليمين لم تُشرع لمن قبلنا، على الأقل لأيوب، فإن الإنسان إذا حلف يمينًا؛ فإنه يُكفّر عنها إذا لم يستطع أن يوفيها أو كانت يمين على غير خير، ووجد غيرها خيرًا منها، يقول النبي ﷺ: «ما حلفتُ على شيء ووجدت غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»[1]، ولو كان هذا مشروعًا في زمنهم لكفَّر أيوب عن يمينه، ولكن لم يجد بُدًا من تنفيذ ما حلف عليه، ولذلك ضرب زوجته بهذا الضغث.

ثالثًا: من لا يحتمل إقامة الحَدّ عليه لضَعْفِه؛ فإنه يُقام عليه مُسمَّى ذلك، يعني أيوب لما رأى أن هذا الضرب لا تستحقه هذه المرأة جعل الله له مخرجًا بهذه الأعواد.

رابعًا: المرء يبتلى على قدر دينه.

خامسًا: من يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فهذه المرأة لما اتقت الله -جل وعلا-؛ جعل الله لها مخرجًا، بأن جمع لها أيوب هذه الأعواد وضربها بها ضربة واحدة حتى لا يحنث في يمينه، وجعل الله لأيوب أيضًا مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.

سادسًا: الدعاء لا ينافي الصبر؛ لأنَّ الله مدحه بالدعاء، ومدحه كذلك بالصبر.

سابعًا: ما بين غمضة عين والتفاتتها يغير الله من حال إلى حال، ذهب معها مريضًا، أبطأت عليه، ورجعت وإذا هو معافى ليس به بأس، ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، فكان كأن شيئًا لم يكن.

ثامنًا: جواز الاستكثار من الحلال، لما قال أيوب: «لا غنى لي عن بركتك».

---

١ أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ختامًا

الأنبياء عليهم السلام هم أشرف الخلق، وأهداهم، وأكملهم دينًا وعلمًا، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه محمدًا ﷺ أن يقتدي بهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقد امتثل ﷺ؛ فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين ﷺ.

والأنبياء كلهم من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ جاؤوا برسالة واحدة عظيمة الشأن جليلة، وهي: توحيد الله عز وجل، فكلهم سعوا لتحقيق هذه الغاية السامية من الخلق وإن اختلفت شرائعهم كما قال ﷺ: (الأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ). أخرجه البخاري.

وقد ورَّثونا أجلَّ ما يُوَّرث وهو العلم كما قال ﷺ: (...وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وَافر) أخرجه أبو داود وصححه الألباني.

فحريٌّ بذوي الألباب والعقول أن يسيروا على إثرهم، ويقتدوا بهديهم؛ فبمنهاجهم تُحصَّلُ سعادة الدارين.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه.

حقيقٌ بالإنسان أن ينفق ساعاتِ عمره بل أنفاسَه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلّا بالإقبال على القرآن وتفهُّمه وتدبُّره واستخراج كنوزه، و إثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمّة عليه؛ فإنّه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والمُوصِل لهم إلى سبيل الرّشاد. فلا يُقْتبَس النور إلّا من مشكاته، ولا تُسْتثمَر المصالح إلّا من شجر اته.

-ابن القيم رحمه الله بتصرف.

نادي النورين

١٤٤٥هـ